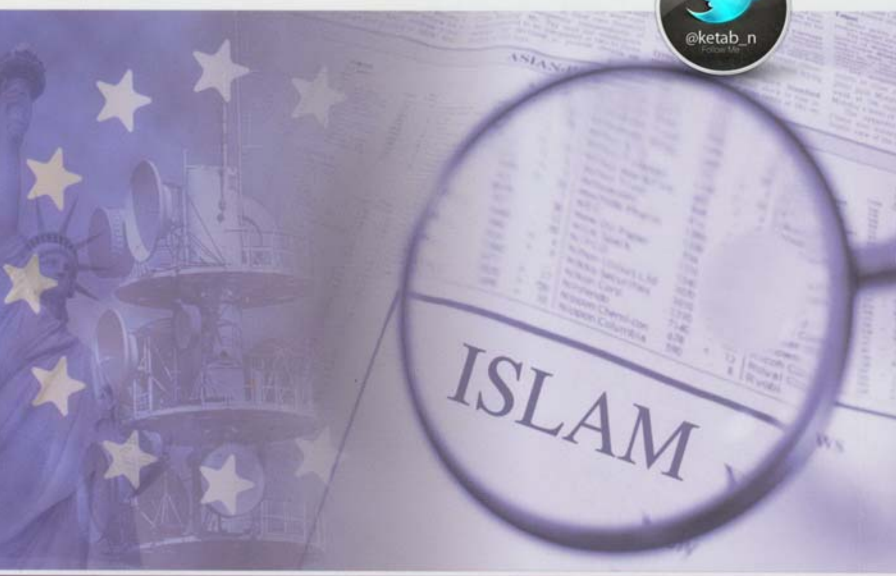
من قضايا الإسلام والإعلام في الغرب



دكتور عبدالكريم بوفرة

آفاق ٣

يُهدى ولا يُباع

روافد

من قضايا
الإسلام والإعلام في الغرب

أ. د/ عبد الكريم بوفرة

د. عبدالكريم بوفرة

من مواليد المغرب سنة ١٩٦١، حاصل على الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس، وعلى دكتوراه الدولة من جامعة محمد الخامس بالرباط، أستاذ التعليم العالي. يدرس اللغة العبرية، ويهتم بقضايا الفكر اليهودي والفكر الغربي بصفة عامة، بالإضافة إلى مجال اللسانيات وعلم الأديان المقارن. له مساهمات علمية داخل المغرب وخارجه، وله إصدارات ومؤلفات باللغة العربية والفرنسية والعبرية.

روافد

نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي

يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط

الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات

دورية وبرامج تدريبية

وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

ص. ب: 13 الصفاة، رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 2487106 (00965) - فاكس: 2468134 (00965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

الطبعة الأولى في دولة الكويت
يناير 2008

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

الموقع الإلكتروني للوزارة: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2007/447

ردمك: 978-99906-664-8-9

فهرس المحتويات

الفصل الثاني: قضايا إسلامية

٧

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

يستطيع الدارس للإنتاج الفكري الغربي أن يخلص إلى أن جزءا كبيرا منه متصل بالإسلام في أبعاده الفكرية والتاريخية والفنية والحضارية، وذلك أن مفكري الغرب رأوا في هذا الدين خصائص وصفات استدعت منهم تقليب النظر وإجالة الفكر، بل دفعت بالعديد منهم إلى مخالطة أهله وشعوبه ومجتمعاته بغية الظفر بصورته النظرية والعملية.

والبحث في صورة الإسلام في الإعلام بالغرب بحث يتجدد في كل مرحلة، بل مع كل نازلة، لكن الثابت أن التطورات تلاحقت في اتجاه توسيع دائرة الاهتمام بالإسلام والمسلمين.

وبالنظر إلى تعدد وسائل الإعلام الغربي وتطورها، فإن الدائرة تصير أوسع، وهذا يعني أن جهود الإعلام الغربي في رسم صورة الإسلام والمسلمين تمثل مادة خصبة للبحث والتحليل، وهي مناسبة للمسلمين، قبل غيرهم، للسعي إلى تفكيك هذه الصورة من خلال قراءتهم لذاتهم وقراءة غيرهم لهم؛ لأن من شأن ذلك أن يكشف السلبيات مقدمة للعمل على تجاوزها.

إلا أن الدراسة العلمية تقتضي أن يبحث في الأصول الفكرية والتاريخية والنفسية الثاوية خلف تلك الصورة، فهي ليست وليدة أحداث عابرة، ولكنها متجذرة في تاريخ الإنسان الغربي، ومختلطة بآثار من الماضي القائم، في بعض جوانبه، على الصراع والإقصاء.

وتأتي أهمية كتاب «الإسلام والإعلام في الغرب» للباحث د. عبدالكريم بوفرة من كونه لا يغفل تلك الجذور، ولكنه لا يقف عندها؛ لأن من شأن الوقوف عندها أن يلون تحليله بلون المواجهة والصراع، بل جعل همه الأساس محصورا في كشف خصائص المنظور الثقافي الغربي لذاته ولغيره، وفي إبراز العلاقة الاحتوائية القائمة من جهة أصحاب القرار السياسي لوسائل الإعلام بشكل يخرجها عن حياديتها وعلميتها المطلوبة أو المفترضة.

وما إيراده لوقائع من هنا وهناك إلا للتدليل على صحة تفسيره لأثر المنظور الثقافي في التعامل مع مختلف المواد الإعلامية وخاصة الإسلام والمسلمين.

ومن أبرز ما وقف عنده الباحث أن نظرة الإعلام الغربي للإسلام والمسلمين تتأثر بالاستثناء وليس القاعدة، فالأصل أن يعمد، بين يدي الرغبة في فهم الإسلام، إلى نصوصه في القرآن والسنة، لكن الإعلام الغربي يتجاوز ذلك، فلا يرسم صورته إلا بالتقاط ما عليه المسلمون من جهة، وما أسسه هو، في لا وعيه، عن مفهوم الدين ودوره في الحياة الغربية من جهة ثانية.

ومعلوم أن المسلمين، اليوم، متأثرون بأوضاعهم وأعرافهم وأحوالهم، ولا يمكن أن يدان الإسلام بتصرفاتهم وسلوكاتهم، وإن كان الأمر محرجا، لأن المسلمين مطالبون، دينيا، بأن يهتدوا بهدي تعاليم الإسلام، ويجسدوها واقعا في حياتهم الخاصة والعامة.

ثم إن الإعلام الغربي يسحب رؤيته للدين، بالمفهوم المسيحي، على رؤيته للإسلام، دون أن يدرك الفارق الكبير بين الأمرين، وخاصة فيما له صلة بموضوع الأبعاد الاجتماعية والحياتية والحضارية للإسلام، التي تجعل واقع المسلمين متناغما مع رؤيتهم الإسلامية وعقيدتهم، أو على الأقل تدعوهم وتحثهم على أن يكون واقعهم كذلك.

والإشكال هو كيف يمكن أن تصل هذه المعطيات إلى الغرب ودوائره، وكيف يتاح للمسلمين أن يقنعوا إعلامه بأن واقعهم اليوم لا يمثل الصورة المثلى للإسلام، وأن الإسلام دين ذو أبعاد اجتماعية واقتصادية وثقافية وحضارية تجعله مختلفا عن المسيحية بين يدي المقارنة العلمية بينهما.

لقد سعت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت إلى إنجاز عمل مؤسسي تمثل في التواصل مع كبار المؤسسات الإعلامية

والصحفية بالغرب، وأقيمت مؤتمرات بهذا الخصوص للبحث في الآليات المتحكمة في نظرة الإعلام الغربي إلى الإسلام والمسلمين، مع تقديم برنامج عمل ومقترحات للوصول إلى رسم صورة دقيقة، وخاصة على مستوى مصادر تلقي المعلومة عن الدين وثقافته وحضارته، والعمل ما يزال متواصلا، وهو محتاج إلى دعم وإسهام من قبل جميع المختصين بالموضوع.

وإن إقدام قطاع الشؤون الثقافية بالوزارة على نشر هذا الكتاب ضمن مشروع روافد، وفي سلسلة: «آفاق» الفكرية، يمثل مناسبة للتذكير بالعناصر الآتية:

- الحديث عن الإسلام والإعلام بالغرب حديث متشعب، وتناوله، في شموليته ودقته وحساسيته، محتاج إلى صبر وأناة، واعتماد لمنهج العدل والإنصاف في العرض والتحليل والنقد والتقويم، بعيدا عن عناصر التأزم والتوتر التي لا تخدم مشروع الأمة في التواصل مع العالم، وإبلاغ رسالة دينها رحمة للعالمين.

- ومع أن صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي متأثرة بعوامل عديدة، منها ما يتصل بالجانب الغربي، ومنها ما يرتبط بالجانب الإسلامي، إلا أنه يتعين قراءة الموضوع بعيدا عن تداعيات ذلك التأثير. ومن ثم، فإن الخطاب الإعلامي الغربي ينتظر منه أن يتجاوز أجواء التوتر التاريخية بين المسيحية والإسلام، وهو مدعو إلى أن يطالب بحركة تصحيحية في هذا الشأن، كما أن على الجانب الإسلامي أن يفهم بأنه مهما كانت الصورة النمطية المعروضة له في وسائل الإعلام الغربي مغرضة أو ذات رسائل أيديولوجية، فإن عليه أن يدرك كيف أنه محتاج إلى توجيه رعايته وعنايته إلى الجاليات العربية والإسلامية بالديار الغربية، وأن يرشدها ويؤهلها لتكون مجسدة للصورة السليمة للدين، باعتباره رسالة حوار وتعارف وتعاون على رعاية القيم الإنسانية الحضارية والرقي بها، وأنه ليس هناك

تناف إطلاقا بين هذا المسلك والحرص على هوية المسلم وعقيدته، بل إن الثانية داعية للأولى ومحرضة عليها.

- مهما سيطر الإعلام، فإن دور المثقف جوهري في هذا الميدان؛ لأنه يوفر له المادة، تحليلا وتعليقا ونقدا. حقيقة أن العديد من وسائل الإعلام «تستأجر» أقلاما لمفكرين، وتجعلهم يدورون في فلك ما تستهدفه تلك الوسائل، إلا أن هذا لا ينسحب على عموم المثقفين والمفكرين، بل هناك أقلام وأصوات تسعى إلى وصف الواقع وتحليله بعيدا عن أي مسبقات أو توجهات أو خلفيات. ومطلوب من مفكري الأمة ومؤسساتها السعي إلى بناء جسور للتواصل مع هؤلاء، وتمكينهم من كل العناصر التي يرجح أن تسهم في مساعدتهم على إدراك مزيد من الحقائق في موضوع الإسلام وثقافته وحضارته، ودور التوجيه الإعلامي في تصعيد حالات التوتر والصدام بانتهاجه أسلوب الرسم المغرض الانتقائي البعيد عن الدقة والإنصاف.

وهنا تنبع أهمية ما دعا إليه الباحث د. عبدالكريم بوفرة من ضرورة إنشاء بنك للمعلومات حول القضايا التي تثار عن الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، والقيام بعمليات إحصاء ودراسة ونقد لمدى صحة ارتباط تلك القضايا والأحكام والمواقف بالإسلام، أو تحديد موقف الإسلام منها في أصوله المعتبرة، ومن ضرورة تكوين مركز إعلامي يكون هدفه ربط الاتصال المباشر بالمحطات التلفزيونية الغربية المحلية والفضائية وعبر الإنترنت، والتدخل لإبراز وجهة نظر المسلمين، وتصحيح ما يعنُّ من أخطاء وهنات في المواقف والأحكام.

دون أن يغفل الباحث دور المثقفين العرب والمسلمين الذي استقروا بالديار الغربية، فالحقيقة أن عليهم دورا كبيرا في الإسهام في تصحيح الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين بالإعلام الغربي، وذلك نظرا لخبرتهم المتمثلة في معاشرتهم للغرب وأهله في أعرافهم وقيمهم، فهم أقدر على مد جسور الحوار والتواصل.

وفي السياق نفسه، دعا إلى رعاية الباحثين المهتمين بقضايا الإسلام، ودعمهم في نشر أبحاثهم ودراساتهم باللغات الأجنبية، من أجل أن تكون تلك الأبحاث والدراسات مصادر للإعلام الغربي بين يدي بحثه عن العناصر المشكلة لصورة الإسلام والمسلمين دينيا وثقافيا وحضاريا.

كما لم يغفل دور الفضائيات العربية في إمكانية المشاركة في تعديل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين، وذلك بانخراطها الحضاري الواعي في معالجة مختلف المشكلات، والسعي إلى إيلاء موضوع مصادر تلقي الغرب لصورة الإسلام والمسلمين أهميته القصوى، وفي مقدمتها القنوات والفضائيات العربية، التي قد يسيء بعضها، بوعي أو بدون وعي، إلى تلك الصورة نفسها.

وقد أكد الباحث أهمية الحوار العلمي الرصين منهجا في التواصل مع وسائل الإعلام الغربية، والابتعاد عن مختلف أشكال الخطاب الانفعالي التصادمي الذي يقيم متاريس وعراقيل، ولا يسهم في بناء تواصل تستفيد منه الذات العربية الإسلامية في التمكين لصورتها الحضارية الفعالة.

والأمل معقود على أن يكون الكتاب لبنة في بناء صرح حوار متواصل في إشكالية تعد، بحق، من كبرى الإشكاليات وأعقدها في العصر الحديث، والله الموفق للفلاح.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجميعن.

يمثل حضور الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، المرئية والمسموعة والمكتوبة والفضائية والمعلوماتية... موضوعا يكتسب أهميته وخطورته من طبيعة العلاقات المتشعبة والمتشابكة والمتضاربة والمتعارضة... التي تجمع بين الإسلام وطريقة معالجة وسائل الإعلام الغربية المختلفة لكل ما له صلة بهذا الدين الحنيف.

ولعل حظ الإسلام في مجالس الإعلام الغربي ومنتدياته يكاد يغطي على جملة من القضايا الفكرية والمعرفية التي كانت تمثل هاجسا للغرب وفيه، خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من شهر سبتمبر 2001، تلك الأحداث التي يمكن أن تكون حدا فاصلا - من الناحية التصورية على الأقل - بين رؤيتَيْن غربيتَيْن في علاقتهما بالإسلام أصبحت أكثر شراسة في حديثها عن العقيدة والممارسة الدينية الإسلامية.

وحينما نتحدث عن الإسلام والإعلام في الغرب فإننا نقصد وسائل الإعلام الغربية في علاقتها بهذا الدين السماوي الخاتم. وبذلك نرجئ الحديث عن وسائل إعلام عربية وإسلامية في الغرب، وعن طريقة حديثها عن الإسلام وكيفية تقديمها له إلى مناسبة أخرى بحول الله تعالى وقدرته.

وحينما نتحدث عن الإسلام والإعلام في الغرب أيضا فإننا نعالج هذه القضية من زاويتين اثنتَيْن مختلفتَيْن (وقد تتكاملان في مرحلة لاحقة):

- الزاوية الأولى: ونتناول من خلالها الإسلام باعتباره نسقا من المبادئ والأفكار والمعتقدات، تمثل رؤية دينية للكون والوجود.

- الزاوية الثانية: ونتناول من خلالها التطبيق العملي لتلك الرؤية الإسلامية المتكاملة، ونقصد ممارسة الشعائر الدينية الواجبة على الإنسان المسلم.

وبذلك تتعدد مستويات معالجة حضور الإسلام في وسائل الإعلام الغربية بحسب الرؤية التي تنطلق منها تلك الوسائل في حديثها عن الإسلام. وهكذا يكون الإسلام دينا وعقيدة، أو فكرا وثقافة، أو سلوكا ومعاملة،... ويتم التعامل مع الإسلام بمعناه السامي المثالي المتعالي، أو الحكم عليه من خلال ممارسات أخلاقية صدرت من أناس يعتبرون أنفسهم يتصرفون وفق تعاليم الإسلام ومبادئه.

وعلى هذا الأساس ينبغي التمييز بين الدين la religion والمتدين le religieux في إطار هذه المعالجة أولا، وفي إطار هذه الرؤية الغربية للإسلام ثانيا.

وانطلاقا من الملاحظات أعلاه، تبدو هذه القضية شائكة، وتحمل كثيرا من المخاطرة والمغامرة.

إن عملية الجمع بين «مفهومين» غير متكافئين يثير سؤالا عويصا من الناحية المنهجية، ونعني به الطريقة التي يمكننا من خلالها الحديث عن الإسلام من جهة، والغرب من جهة أخرى.

فالغرب فضاء معرفي جغرافي، والإسلام دين متكامل.

والغرب حدود تتمطط وتتقلص بحسب الرؤية الأيديولوجية له.

والإسلام نسق من المبادئ يتجاوز الزمان والمكان.

والغرب اتجاه، أي وجهة نحدد من خلاله الأماكن والمواقع مثل البوصلة، أي أن الغرب يتحول إلى وسيلة نستطيع من خلالها التمييز بين الشمال والجنوب، أو الشرق والغرب، بينما الإسلام يتعالى على

تلك التحديدات؛ ذلك لأن تلك الأبعاد الجغرافية تضيق عن احتواء مضامينه التي تخاطب الشعوب والأجناس والأقوام والمعتقدات، والبلدان والقارات، والأجرام والنجوم، والأرض والسماوات، والأفلاك والكواكب.

والغرب يضم تاريخ ثقافة تصر على الحديث عن علاقة صراع بين الإنسان والإله، وتنادي بموت الإله، ليحل محله إله صغير، هو الإنسان. والغرب عبارة عن فلسفة تسعى إلى التأصيل لفكرة الإلحاد مثلا، وتجعل منه نزعة إنسانية جديدة، أو علما قائما بذاته Athéologie كما يفعل الفلاسفة الفرنسيون[1] Michel Onfray (2006) و(2005)[2]، وMichel Guérin (2005)[3]، Philippe Cappelle & André Comte-Sponville (2005)[4] مثلا.

والإسلام دين انسجام تام، ويقوم على تحديد نوع العلاقة التي تجمع المخلوق بخالقه، والعبد بربه، وهي علاقة تضع حدودا فاصلة بين الكائن البشري وهو يسعى إلى عمارة الأرض، وبين الله خالق الكون الذي يدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر. ولعل العلماء حينما يخشون الخالق سبحانه إنما تنتابهم تلك الخشية والرهبة حينما يكشفون عن بعض من أسرار الكون التي لا تحصى.

وهكذا فبدلا من أن يضيع الإنسان عمره، ووقته، وجهده، وطاقاته في محاولة التمثل بالإله، والتصرف مثله، وأنى أن يتحقق له ذلك،

---

(1) Michel Onfray : 2006. Contre - Histoire de la philosophie (2 volumes). Tome 1 : Les sagesses antiques. 334 pages. Tome 2 : Le christianisme hédoniste. 346 pages. Editions Grtasset. Paris.

(2) Michel Onfray : 2005 Traité d'athéologie. 281 pages. Editions Grasset. paris.

(3) Michel Guérin : 2005. La pitié. Apologie athée de la religion chrétienne. Editions Actes Sud. Paris.

(4) Philippe Cappelle & André Comte-Sponville : 2005. Dieu existe-t-il encore ? Editions du Cerf. Paris.

وهذا الكتاب عبارة عن مناظرة فكرية شيقة بين فيلسوف مؤمن (الاسم الأول) وفيلسوف (الاسم الثاني) لا يكف عن الجهر بإلحاده والإعلان عن نزعة إيمانية مادية محضة.

يدعو الإسلام الإنسان إلى استثمار زمنه فيما يفيده في حياته على وجه البسيطة.

وهكذا يبدو من الملاحظات أعلاه أننا نتعسف كثيرا حينما نجمع بين مفهومَيْن لا يعبران عن منطلقات فكرية، ووجودية، وأخلاقية، ومعرفية، ودينية، وفلسفية مشتركة. وعلى الرغم من هذا كله نحاول الاقتراب ما أمكن من المفهومَيْن، والخوض في تفاصيل بعض من القضايا المرتبطة بهما.

وتبقى وسائل الإعلام - انطلاقا من هذا التصور - عبارة عن وسيط يتحمل قدرا كبيرا من المسئولية في حديثها عن الإسلام في علاقته بالغرب، وكذلك في حديث الغرب عن الإسلام. وتصبح مسئولية الإعلام مزدوجة حينما تعالج كثيرا من القضايا المرتبطة بالإسلام عموما في علاقته بالغرب، انطلاقا من ذلك التصور الذي يقوم على التمييز بين كيانَيْن منفصلَيْن من الناحية الثقافية، هما «الشرق» و«الغرب».

هذه المانوية الفكرية تسعى للمفاضلة داخل هذه الثنائية «الوهمية» بين جملة من التصورات، فيها نصيب كبير من الادعاء والتحايل والتطاول والتعسف في إصدار الأحكام، وتسويغ المقولات، وتعليل المواقف، وتمرير الخطابات، وإصدار الشعارات...

ولعل هذا التدرج في صعوبة الحديث عن هذا الموضوع الشائك حول «الإسلام والإعلام في الغرب» يكون حافزا لنا من أجل بسط تصور يسعى قدر الإمكان إلى الانخراط في حوار فكري هادئ ورصين في خضم صخب إعلامي، وضجيج فكري يعتمد الإثارة وتهييج الأحاسيس في كثير من الأحيان.

إن الحديث عن «الإسلام والإعلام في الغرب» يضعنا أمام قضية تتعدد أبعادها، وتتشابك جوانبها، وتتداخل عناصرها. فهذا «الثالوث»

يحمل كثيرا من الأدوات الفكرية والمنهجية التي تتحكم في علاقة الغرب بالشرق أساسا من خلال الصورة، سواء كانت مرئية أو مكتوبة أو مسموعة.

هذه الصورة قد تكون عبارة عن لقطة حية تحملها الكاميرا، وتنقلها القنوات الفضائية عبر جهاز التلفاز أو شاشة الحاسوب مثلا إلى أماكن مختلفة في هذا الكون، في اللحظة التي يقع فيها حدث معين. وقد تكون الصورة عبارة عن دراسات ومقالات تحدث تأثيرا كبيرا في الرأي العام، نظرا للمستوى الثقافي المتميز لفئات واسعة داخل الغرب، ونظرا لعادة محمودة جدا على المستوى الشعبي والجماهيري، وهي القراءة اليومية في القطار، والحافلة، وتحت الأنفاق، وفي الأجواء. وهذا يعني تفاعل تلك الفئات مع كتابات لا تعرض جميعها صورة موضوعية أو بريئة عن الإسلام في علاقته بالغرب في كل الأحوال أو المناسبات.

وقد تكون الصورة ذهنية وذلك خلال الوسائل المسموعة التي يحرص الغرب على الارتباط بها، على الرغم من هيمنة شاشة التلفاز على وسائل إعلامية أخرى. هذا الحضور الدائم للصورة جعل نشرة الأخبار المسائية في فرنسا مثلا تشبه «القداس» Une messe نظرا للنسبة المرتفعة في متابعة أخبار الساعة الثامنة من مساء كل يوم.

وازدادت أهمية الصورة خصوصا مع التسهيلات الكثيرة والإمكانيات الكبيرة التي تمنحها وسائل الاتصال اليوم، سواء من خلال القنوات الفضائية أو عبر الإنترنت، أو بفضل الجيل الثالث للهاتف المحمول؛ وهو ما يعني أن الصورة تحولت اليوم إلى ما يشبه «الأيقونة» Une icone، أي إلى شكل يكاد يكون نقلا أمينا للأمور كما تحدث في واقع الأشياء. وهنا تتجلى خطورة هذه الفكرة التي تجعل الأيقونة تتحول إلى «يقين»! أي أن الصورة لم تعد تمثيلا لواقع معين، وإنما هي الواقع ذاته!!.

ونقترح في هذا الفصل الحديث عن علاقة الإسلام بالغرب من خلال وسائل الإعلام، وذلك بربط هذه القضية بجوانب ثقافية عامة، وأخرى متصلة بالغرب تحديدا، وكذلك بالحديث عن «المسألة الدينية» بمعناها الاجتماعي، وأيضا من خلال ممارسة الشعائر والطقوس، إنْ في الغرب أو في الشرق. وتبقى وسائل الإعلام هي الوسيط الذي يعرض لهذه القضايا، ويسهم في إثراء النقاش حولها سلبا أو إيجابا، وفي التعبئة والإثارة والتشويش والعرض الهادئ لكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين عموما.

ولعل هذه العلاقة التي يتشابك فيها الغرب والإسلام والإعلام تكشف عن طبيعة الرؤى والتصورات والمعتقدات والأيديولوجيات والتقنيات والآليات والوسائل والأدوات التي ينطلق منها الغرب في حديثه عن الإسلام من خلال وسائل الإعلام التي يجيد هذا الغرب التحكم فيها، ما دام هو المبادر والساعي إلى ابتكار تقنيات حديثة وجديدة في التعبير والتواصل مع أهله ومع غيره.

وحينما نثير القضية أعلاه في هذا البعد الثقافي العام تبدو معرفة الخلفية الفكرية للغرب مسألة ضرورية من أجل فهم المواقف المتباينة الصادرة عن هذا الغرب تجاه الإسلام. وتكشف هذه المواقف عن قدر لا يستهان به من تلك القضايا التي تعرض داخل الغرب اليوم، دونما أن يعني ذلك بالضرورة ارتباطها بالإسلام والمسلمين بشكل مباشر. أي إنَّ الخلفية الثقافية الغربية في علاقتها بالإسلام تدخل ضمن تصور عام ينطلق منه هذا الغرب في رؤيته لنفسه، وكذا علاقته بالوجود عموما، بما فيه الآخر بصفته ذلك الكائن البعيد، أي الغريب.

لذا نعتقد أن دراسة علاقة الغرب بالإسلام من خلال وسائل الإعلام سوف تكون مفيدة أكثر حينما نربطها أولا بالمسألة الثقافية كما هي مبسوطة اليوم في الغرب، وذلك من خلال بعض النماذج الفكرية المعاصرة، مثل مظاهرات الشباب في فرنسا، وقضية

العلمانية، وقضية الرسوم الكاريكاتيرية، وقضية الاستعمار، وكذلك من خلال الحديث عن بعض الأشكال الجديدة في التعبير عن الهوية داخل الغرب، ومن ضمنها تلك الدعوات المرتبطة بالجسد عموما والأسرة والأقليات واللغة والدين.

ولعل التمهيد لهذه القضايا بالحديث عن طبيعة الغرب الثقافية عموما في صلتها بالإسلام، باعتباره نظاما متناسقا من القيم الإنسانية، سوف يعيننا كثيرا لغرض استيعاب الأشكال المختلفة التي تسعى من خلالها وسائل الإعلام ليس إلى التعريف بالإسلام وقضاياه، وإنما إلى تقديم الإسلام من منظور غربي إلى الغرب (وربما الشرق) عموما.

وفي فصلي الكتاب بيان ذلك بتفصيل، والله الموفق

الفصل الأول

الإسلام والإعلام
في الغرب

١ - المنظور الثقافي

ينبغي فهم طبيعة العلاقة (وليس حقيقتها) التي تربط الغرب بالإسلام (وليس العكس) من وجهة نظر هذا الغرب الثقافية.

فحينما يقول الشاعر الفرنسي (1821-1867) Charles Baudelaire مثلا إنه توجد ثلاثة أصناف من الناس المحترمين، وهم: رجل الدين المتعبد في الكنيسة، والمحارب، والشاعر، فمثل هذا الكلام يضعنا أمام رؤية ثقافية لا شك أنها وليدة المجتمع الفرنسي آنئذ. وهذا التصور يضع علاقة تراتبية ومباشرة بين ثلاثة أشكال من «الثقافة»، وهي: العلم، والحرب، والإبداع.

وغير خاف أن تصنيف هذه الوظائف داخل المجتمع يعبر عن المكانة التي كان يتمتع بها الراهب في الكنيسة، والمحارب في ميدان القتال، والشاعر في مجال الإبداع.

وحينما نعود إلى موضوع الغرب في علاقته بالإسلام من خلال وسائل الإعلام نجد أنفسنا في خضم إشكالية عويصة من الناحية المنهجية على الأقل.

فالإسلام يحتوي على نسق متكامل من القيم الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، والسلوكية، والجمالية، والمعرفية، والذوقية، والنفسية، والترفيهية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية... لدرجة يضبط فيها هذا النسق نظام الحياة اليومية والدورية، الفردية والجماعية، الإسلامية وغير الإسلامية، كما يضبط إيقاعها بشكل ينسجم مع ظروف الحياة والمعيشة في شتى الأصقاع وفي شتى البلدان.

ويقابل هذا النسق المعرفي المتكامل الذي يمثله الإسلام نموذج ثقافي ينضوي تحته الغرب، أي جغرافية ثقافية ممتدة في التاريخ وفي الزمن، وهي شاسعة لدرجة تصعب الإحاطة بجميع أشكالها ومظاهرها. والنتيجة أن أي مقاربة تسعى إلى الحديث عن هذا الغرب في «عمومياته» ما هو إلا ضرب من الهوس الفكري الذي لا

يضيف شيئا إلى البحث العلمي الجاد والرصين.

وبين نظام القيم والجغرافية الثقافية ينتصب الإعلام بما يمثله من خطورة فكرية ونفسية وبصرية، وما يعنيه من هيمنة ورغبة في التأثير على مدارك المتلقي وعواطفه وأحاسيسه ومشاعره.

وحينما يكون الإعلام على هذا المستوى من الخطورة تكون هذه الأداة الواسطة التي تجعلنا نتحدث عن الغرب في علاقته بالإسلام (وليس العكس) أداة لا يمكنها أن تتسم بالحياد، وذلك لاعتبارات سنعود لها لاحقا.

١-١ الإسلام نظام من القيم

جاء الإسلام حاملا لصفة الدين الخاتم، أي الدين المكمل والمتمم لما سبقه من أديان سماوية. وبذلك يكون الإسلام قد أوجد شكلا جديدا في طريقة تعامله مع الدينين: اليهودية والمسيحية مثلا. فهو لم يحصر نفسه في قضايا لاهوتية تصل إلى الحد الذي لا يمكن معه الفصل بين هاتيْن الديانتيْن من الناحية الثقافية مثلا. والحديث عن حضارة يهودية - مسيحية تعبير دقيق جدا؛ لأنه ينطلق من موروث فكري - وجودي مشترك لا تُفهم اليهودية أو المسيحية إلا داخله أو انطلاقا منه.

فتسمية «العهد» مثلا Testament وما تحمله من معانٍ دينية ترتبط عموما بفكرة الأمانة والمسئولية لا يمكن فهمها إلا في هذا الإطار، وبعدها يمكن استيعاب الفرق الواضح بين مفهوميْ «العهد القديم» (التوراة) و«العهد الجديد» (الأناجيل) كما هي في الرؤية المسيحية.

والأمر نفسه ينطبق على جملة من المفاهيم، من قبيل «المسئولية»، و«الاختيار»، و«الميثاق»، و«مسئولية المسئولية»، و«الشعب - الشاهد»، و«إسرائيل الجديدة».

ولقد ابتعد الإسلام عن الخوض في مفاهيم فكرية - وجودية تكتفي بنسخ المقولات السابقة عليه، وبناء مقولات «جديدة» تحتل مكانها، وكأن الأرض ضاقت عن استيعاب مساحات جديدة للفكر والحوار والنقاش والجدل.

وتكفي هذه الإشارة للحديث عن الإسلام باعتباره دينا سماويا يتميز عن اليهودية والمسيحية بعدم ربطه اللصيق بهما، كما حصل للأناجيل في علاقتها بالتوراة. وهي ميزة تحتاج منا إلى مساحة واسعة حتى نخوض في تفاصيلها.

وتعتبر بعض المواقف السياسية الإسرائيلية الحالية عن موقف التصور اليهودي عن مسألة «العولمة» مثلا. فإذا كانت دول الاتحاد الأوروبي تسعى منذ أكثر من خمسة عقود إلى تكوين نظام سياسي يتجاوز مفهوم «الدولة - الأمة» L'état Nation، فإن إسرائيل الحالية تعارض بشدة وجود «سوق أوسطية مشتركة»؛ وذلك لخطورة مثل هذا التوجه الاقتصادي المرتبط بالعولمة على مفهوم جوهري في الفكر السياسي الإسرائيلي المعاصر، ونقصد مفهوم «الدولة اليهودية» The Jewish State؛ ذلك أن الدولة اليهودية تعني في نهاية المطاف دولة يكون مواطنوها يهودا فقط!.

وتظهر هذه الإشارة مدى التداخل الحاصل بين الدين والسياسة. ويصل هذا التداخل مداه إلى مجال الأكل وطريقة تحضير الطعام مثلا!.

فهذا المؤرخ Anthony Rowley (2003)[1]، وهو يتتبع مسار انتقال كثير من الأطعمة والمأكولات والبهارات، شرقا وغربا، يصل إلى أن فكرة العولمة هي ابتكار محض من الفاتيكان الذي قرر أن يحمل رسالة الإنجيل إلى الأرض كافة. وكان ينطلق هذا التبشير من فكرة

(1) Anthiny Rowley : 2006. Une histoire mondiale de la table. Stratégies de la bouche. Editions Odile Jacob. Paris. 402 pages.

مفادها «ضرورة» «تمسيح» الأرض لأن كل المعتقدات الأخرى أدخلت الإنسان في مرحلة التوحش والهمجية. ومن أجل إخراج هؤلاء البشر من تلك الوضعية السيئة كان لا بد من «حملهم» على اعتناق المسيحية (طوعا أو كرها)، وكان لا بد من الحديث عن الأرض باعتبارها ذات شكل كروي، وذلك لكي يقوم المبشرون الإنجيليون بالدوران حول الأرض، والوصول بتعاليم المسيحية إلى أصقاع مترامية الأطراف.

ويتزامن هذا التوجه التبشيري مع مخططات سياسية واقتصادية ترتبط عادة بمرامي الاستعمار وأهدافه التوسعية الاستغلالية.

وهكذا دعا البابا الإسباني Alexandre VI Borgia يوم 04 مايو 1493 إلى «تمدين العالم وتحضيره» من خلال رسالته Inter Coetra، وخلاصة فكرته هو أن يسعى الفاتيكان إلى «تنصير» الآخرين خشية أن يتحول هؤلاء إلى «وحوش»، أو مخافة أن يقودوا المؤمنين بالمسيحية إلى الهاوية! فالتنصير بهذا المعنى حماية للمسيحيين من انحراف الكفار.

توضح هذه النماذج مدى تغلغل الدين في تصريف أمور الفكر والاقتصاد والسياسة، تستوي في ذلك اليهودية والمسيحية. فكيف نعيب على الإسلام خوضه في شئون الدين والدنيا في جزئياتها الكبيرة والصغيرة؟

ففكرة «الاختيار» مثلا التي خاض فيها الفكر اليهودي والفكر المسيحي على السواء انتقلت من مجرد فكرة ترتبط بمسئولية الإنسان في الأرض إلى تصور يجعل من هذا الاختيار دليلا على تفوق عنصر بشري معين على باقي الأجناس البشرية الأخرى.

ومن هنا برزت فكرة «شعب الله المختار» بالمعنى الديني كما طرحته

---

(1) أبو يعرب المرزوقي: وحدة الذات العربية الإسلامية يتهددها التفكك، ص 17، القدس العربي (لندن)، السنة 16، العدد 4759-4760 / 10 سبتمبر 2004.

الصهيونية، وكذلك بالمعنى العلماني كما طرحته النازية. ففي الحالة الأولى نحن أمام عقيدة دينية، وفي الحالة الثانية نحن أمام عقيدة إثنية [1].

ولعل هذا التجاذب بين ما هو ديني وما هو ثقافي فكري، وصعوبة الفصل فيه، هو الذي حدا بكثير من وسائل الإعلام الفرنسية مثلا إلى تخصيص عدد كبير من موضوعات غلافها إلى الحديث عن الدين والإسلام في الغرب عموما. ونذكر منها على سبيل المثال فقط:

- عددان خاصان بالإسلام طرحتهما الأسبوعية الفرنسية Le Point مؤخرا.

- العدد 2804 من أسبوعية L'Expres(٢٨ مارس - ٠٣ أبريل ٢٠٠٥)، وموضوعه: الله والسياسة.

- العدد 2109 من أسبوعية Le Nouvel Observateur (من 07 إلى 13 أبريل 2005)، وموضوعه: البابا الذي هز العالم.

- العدد 1699 من أسبوعية Le Point(2005/04/14)، وهو عبارة عن عدد خاص حول حياة البابا يوحنا بولس الثاني (1920 – 2005) في 75 صفحة.

- العدد 697 من مجلة Sélection (مارس 2005) وموضوعه الإيمان بالله: تحقيق خاص في أربعة عشر بلدا أوروبيا.

- العدد 1701 من أسبوعية Le Point(2005/04/21)، وموضوعه: بابا الصدمة.

- العدد 2808 من أسبوعية L'Express (من 04/25 إلى 2005/05/01)، وموضوعه: البابا الجديد الذي يفرق المسيحيين.

١-٢ الغرب: جغرافية ثقافية

إن اعتبار الغرب جغرافية ثقافية تحديدا يضعنا أمام صعوبة الخوض في جملة من القضايا المرتبطة بهذا الفضاء الشاسع؛ ذلك أن الحيز المكاني الذي يحتله هذا الغرب فوق كوكبنا الأرضي يجعل منه فاعلا ثقافيا أساسيا إلى جانب ثقافات وحضارات أخرى، أي إنه جزء من فكر بشري حباه الله بقدر هائل من الطاقات والإمكانيات والقدرات... لكي يضمن لنفسه حياة كريمة وحضورا أخلاقيا، في إطار الاحترام المتبادل، والاعتراف بثقافة الغير، والتشجيع على معرفة خصوصياتها، والاطلاع عليها، والتفاعل معها بكثير من الليونة، وقدر كبير من التقدير والاحترام.

وحين نضع الغرب ضمن هذه الرؤية الجغرافية الثقافية يصبح الحديث معه وعنه مجديا لأنه حوار الغرض منه سعادة الإنسان بصفته إنسانا.

غير أن الغرب كما يبدو اليوم يكاد يتحول إلى وحش ضار، يفترس كل من يعترض طريقه، أو يحاول أن يعيده إلى جادة الصواب.

ولقد تحول هذا الغرب إلى مجتمع استهلاكي بامتياز Hyperconsommation كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي Gilles Lipovetsky (2006) [1]، على خلاف ما كان عليه في عقديْ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. آنذاك كان الغرب مجتمعا استهلاكيا فقط. واليوم لم يعد النموذج الاقتصادي قائما على العرض، وإنما على الطلب، أي إن الزبون هو الذي أصبح يفرض طريقة الإنتاج وشكله، وحجمه وجودته، كل زبون حسب رغباته وقدراته المادية.

وهكذا تغلغلت كثير من أشكال الاستهلاك لدى هذا الغرب لدرجة أصبحت معها الليبرالية وكأنها قدر هذا الغرب المحتوم، ولدرجة

(1) - Gilles Lipovetsky : 2006. Le bonheur paradoxal

أيضا برز فيها حديث عن عقلية TINA، أي انعدام البديل: There is no alternative، أي إننا أمام البديل الاقتصادي لليبرالية في وجهها الكاسح والكاسر والمتوحش.

وبرزت داخل هذا المجتمع الغربي الليبرالي طبقة جديدة من الأغنياء لا يهمها من شئون بلدانها إلا ارتفاع أسهم بورصاتها، ولا يعنيها إلا تحقيق أرباح إضافية تضاهي ما يجنيه أرباب العمل في الولايات المتحدة الأمريكية، وتسعى لكي تجعل أجور مستخدميها يوازي ما يتقاضاه العامل البسيط في الصين. فهذه الطبقة الغنية الجديدة أصبح وطنها الحقيقي هو العالم بأسره، وتكاد تكون الرابطة التي تجمعها بالبلد الذي تعيش فيه هي الجنسية فقط!.

هذه الليبرالية أوجدت أنماطا جديدة في السلوك والأخلاق والمعاملات في الغرب، وهو ما جعل بعض مفكرينا ينعتون ذلك بالجاهلية «المعاصرة»، ويجزمون أنه «اجتمع في هذه الجاهلية المعاصرة ما تفرق في جاهليات التاريخ البشري كله:

- جاهلية قابيل وهابيل، فقيل عن الإنسان إنه ذئب للإنسان.

- جاهلية قوم نوح بالعقوق وتفكك الأسرة والعصيان، وهو ما يدل على أن الدين ليس مسألة عائلية.

- جاهلية قوم إبراهيم بكثرة الأصنام وتفاقم الوثنية.

- جاهلية قوم لوط بما فيها من بشاعة ووقاحة، دون أن تصل هذه الوقاحة إلى عقد الزواج بين أهل الفحشاء.

- جاهلية ما قبل الإسلام من جهل وظلم وتفكك وعنف

---

(1) المهدي بنعبود: طبعة 2005. - الأعمال الكاملة. رصد الخاطر، 61/1. - الجزء الأول: أزمة الحضارة المعاصرة... - مطابع أمبريال، الرباط.

(2) - Ruwen Ogien : 2006. Halte a la panique morale! pp. 30-33. In: Sciences Humaines. Série: Les grands Dossiers. N 2. La moralisation du Monde. Mars-Mai 2006.

ووثنيات»[1].

إن الغرب يعيش اليوم أزمة أخلاقية حادة؛ وهو ما دفع بكثير من المفكرين الأوروبيين والأمريكيين إلى التحذير من خطورة تردي الأوضاع الأخلاقية في الغرب.

فهذا الفيلسوف الفرنسي[2] Ruwen Ogien (2006) يتحدث عن «فوضى أخلاقية» بدأت تبرز في المجتمعات الغربية، نتيجة تغير كثير من العادات الاجتماعية التي كانت تقوم في أوروبا على أساس العيش المشترك. وامتدت الفوضى إلى مجاليْ الأسرة والجنس. فالأشكال التقليدية في تكوين الأسرة، وعلى رأسها الزواج، أصبحت مهددة نتيجة ظهور أشكال جديدة تُهَدِّدُ صرح المجتمع (سنعود إلى هذه الفكرة لاحقا).

ونتذكر جيدا الضجة التي أحدثتها المجلة الأسبوعية الباريسية Le Nouvel Observateur يوم 5 أبريل 1971 حينما نشرت لائحة بأسماء النساء اللائي قمن بالإجهاض (وكان ممنوعا في فرنسا آنذاك)، ووقعن عريضة يثير عنوانها كثيرا من الاستفزاز: «بطوننا ملك لنا» Notre ventre nous appartient. وها هنَّ يعدن اليوم، وعددهن 343 امرأة، بعد مرور ثلاثة عقود ونصف على نشر تلك العريضة، ليؤكدن أنهن كن يناضلن من أجل الحق لكي يكن نسوة، دون أن يكن بالضرورة أمهات.

هذه عينة من قضايا ثقافية ظهرت في الغرب، وانتقلت إلى الشرق بفضل وسائل الإعلام المتعددة والمختلفة.

٣-١ الإعلام: السلاح الفتاك

إن نعت الإعلام بالسلاح الفتاك ليس تعبيرا مجازيا بقدر ما هو تشخيص لخطورته في حياة الأفراد والجماعات.

وقد فاقمت وسائل الاتصال الحديثة من خطورة وسائل الإعلام الخطيرة أصلا؛ فالإنترنت وما تتيحه من إمكانيات الإبحار في عوالم فكرية، وفضاءات مسلية مختلفة تجعل العالم وما فيه بين أيدي مستعملي الحواسب. وتمكن تقنية الضغط الرقمي المستعمل من نقل قدر هائل من المعلومات في ظرف وجيز وفي حيز ضئيل لا يتعدى بضع سنتمترات، لدرجة تحولت فيه التكنولوجيا إلى فضاء الغلبة فيه للعناصر الصغيرة جدا، وهو ما يعرف بتقنية La nanotechnologie. وتتجلى خطورة التقنيات الإعلامية والمعلوماتية الحديثة في إمكانية إدخال تغييرات وتعديلات على الصورة السمعية أو المرئية أو الرقمية مثلا. وتتيح هذه التقنية إمكانية تقليب الصورة مثلا، وهذا يعني انتقال وسائل الإعلام من مرحلة تمثيل للواقع إلى مرحلة تقديم الواقع.

يقوم التمثيل Représentation على تصوير الأشياء ونقلها «كما هي» إلى المتلقي، دونما تدخل مباشر من طرف الشخص أو الهيأة أو الجهة أو المؤسسة أوالقناة أو المحطة التي قامت بتصوير مشهد أو لقطة أو حدث أو واقعة أو عملية مسلحة أو عملية سطو.

ذلك أن الإعلام يقوم على الإخبار، ومن حق المتلقي (خصوصا حينما يكون زبونا) أن يعرف الأشياء التي يرغب في الاطلاع عليها. غير أن التمثيل بمعناه التجريدي (التسطيحي) هذا لم يعد له تأثير اليوم، نظرا للتطور الهائل الذي حصل في وسائل الإعلام، وكذلك التغيير الذي أصاب الأفكار والعقليات.

وهكذا انتقلنا، إعلاميا، من مرحلة التمثيل التقليدية إلى مرحلة خطيرة، نسميها التقديم Présentation، ونقصد بها التدخل المباشر من طرف هيأة إعلامية معينة في نقل خبر، أو في تغطية حدث، وإن كان ذلك على الهواء مباشرة.

فالحياد في نقل الخبر أو تصويره لا يعني أكثر من تقديم وجهة

نظر معينة إزاء حدث معين، وإلا فما الغرض من وجود هذا الكم الهائل من القنوات الفضائية العربية والأجنبية اليوم؟ وما الداعي لتناسل محطات تلفازية أو إذاعية أو مقاولات صحفية؟

فالتقديم مرحلة جديدة تثبت أن العلاقة مع وسائل الإعلام لم تعد كما كانت من ذي قبل. فإذا كانت تلك الوسائل مجرد وسيلة في مرحلة التمثيل، فإنها تحولت إلى غاية (أو وسيلة لأجل غاية) مع مرحلة التقديم.

وحينما تعرض الأمور بهذه الصيغة علينا أن ننتظر مفاجئات حينما نصل إلى الطريقة التي عالجت بها وسائل الإعلام الغربية الإسلام وما يرتبط به من قضايا فكرية وسياسية.

ويبقى تأثير وسائل الإعلام كبيرا في الغرب، لدرجة تتحول نشرة الأخبار المسائية (على الساعة الثامنة في أغلب الأحيان) إلى ما يشبه «القداس» La messe de 20 heures. هذا التعبير: «قداس الساعة الثامنة مساء» يظهر حجم متابعة الأوروبيين لنشرات الأخبار، وحرصهم على معرفة ما يدور ويمور في العالم من أحداث اليوم.

ولقد أدرك أصحاب الشركات والمقاولات الإعلامية والتجارية على السواء أهمية وسائل الإعلام في الوصول إلى الرأي العام والتأثير عليه. فالمشاهد ينحصر دوره في التلقي، وإن أصبح بإمكانه اليوم التدخل عن طريق التفاعل Interactivité. وهو في الوقت نفسه زبون محتمل، أي رقم ضمن معاملة في إطار صفقة تجارية كبيرة؛ فهذا زمن المصالح.

ولعل كلام المدير العام للقناة الفرنسية الأولى TF1 السيد Patrick Le Lay يعبر صراحة عن هذا التوجه الإعلامي الجديد والخطير

---

(1) - Eric Dupin : 2006.
Une société de chiens.
Editions du Seuil. Paris. 220 pages.

في الوقت نفسه. وينبغي أن نتمعن مليا فيما سنورده خصوصا أنه صادر عن مدير قناة تلفزيونية تحتل المرتبة الأولى على المستوى الأوروبي.

يقول السيد Patrick Le Lay [1]: «تنحصر وظيفة TF1 أساسا في مساعدة كوكا كولا مثلا على بيع منتوجها. ولكي يتم التقاط خطاب إشهاري معين يجب أن يكون دماغ المشاهد متاحا. فبرامجنا تسعى لكي تجعل ذلك الدماغ متاحا، وذلك عن طريق تسليته والترويح عنه وتحضيره بين خطابيْن. فما نبيعه لكوكا كولا هو وقت من دماغ إنساني متاح».

ويعتبر «التلفزيون مجرد نشاط دون ذاكرة، ما دمنا نشقى في متابعة التقليعات الجديدة (المودة)».

هذا التصريح الخطير الصادر عن المدير العام للقناة الفرنسية الأولى، وهي أكبر قناة أوروبية، يحدد وظيفة معينة لهذه القناة، وتتمثل في مساعدة شركة عالمية للمشروبات الغازية على بيع منتوجها. ويحق لنا أن نستفسر عن دواعي ذكر شركة بالاسم دون غيرها. ولكي تبيع تلك الشركة مشروبها الغازي تحضر القناة الفرنسية الأولى الأجواء لكي تمرر كوكا كولا خطاباتها الإعلانية والإشهارية. ويقتصر التحضير على الترفيه والتسلية، أي ترويض دماغ المشاهد، وإزالة التوتر النفسي والعصبي والعاطفي عنه، أي القيام بعملية تفريغ لدماغ المشاهد لكي يكون مستعدا ليستمع إلى خطاب تلك الشركة الغازية.

غير أن هذه المساعدة سرعان ما تنتهي إلى عملية بيع، بيع ماذا؟ بيع وقت محدود (30 ثانية أو أكثر عند كل وصلة إشهارية) من دماغ مشاهد مستعد للاستماع لخطاب إشهاري غازي!!

وتصل جرأة المدير العام إلى الحد الذي يعتبر فيه مشاهدة التلفزيون عبارة عن نشاط لا مكان فيه للذاكرة! أي في غياب الوعي

والقدرات العقلية لدى المشاهد، وكأن المشاهد يقع تحت تأثير مادة منومة أو مخدرة أو مسكرة.

ويكشف هذا التصريح عن استراتيجية إعلامية جديدة تقوم، علاوة على منطق المعاملة التجارية ما دمنا أمام مقاولات إعلامية وتجارية كبرى، على عملية تواطؤ فاضح بين شركات عملاقة من أجل كسب مزيد من الربح، وذلك انطلاقا من اعتقاد مسبق بخضوع المشاهد لهذه الاستراتيجية الجديدة؛ وهو ما يدل على استصغار بل احتقار لذهنية المشاهد، ما دامت عملية المشاهدة برمتها وكأنها تتم في لا وعي المشاهد ولا شعوره.

وهذا يعني أن منطق التجارة يعتمد أساسا على الجانب النفسي لغرض الوصول إلى الهدف النفعي. فالقناة الفرنسية، ومعها باقي القنوات عموما، وشركة كوكا كولا، ومعها باقي الشركات والمقاولات عموما، تنطلقان من رغبة مشتركة في دفع المشاهد إلى الاستهلاك إلى أقصى الحدود، وربما استنزاف إمكانياته المادية. اتفاق مسبق، أي تواطؤ واضح بينهما لغرض التأثير على المشاهد بصفته زبونا أو مستهلكا.

وتتحول الوصلة الإشهارية إلى خطاب وما يعنيه من مستويات في إعلان ما، وفهم أبعاده ومراميه. فالإشهار لم يعد مجرد ترويج لسلعة معينة، بل تحول إلى خطاب، أي إلى لغة تقدم منتوجا معينا. ولعل هذا اليقين عند المدير العام للقناة الفرنسية الأولى في سهولة الوصول إلى دماغ المشاهد يضعنا أمام مسألة الثقة الزائدة في النفس التي تصل إلى حد الغرور، ويصل الغرور مداه حينما يكون الهدف دماغ الإنسان، أي ذلك الجهاز الذي يستطيع التقاط الأشياء وقبولها أو رفضها.

أما الترفيه والتسلية فما هما إلا وسيلتان للوصول إلى دماغ المشاهد. هذا الأخير عليه أن يقبل بالخضوع لعملية «غسل دماغ»، أو

الوقوع تحت التخدير مقابل مشاهدة البرامج المسلية التي يتابعها كل مساء. فهو يدفع مقابلا معنويا وماديا وعصبيا وعاطفيا وهو يتفرج على شاشة التلفزيون.

وحينما يبيع المدير العام للقناة الفرنسية الأولى وقتا من دماغ المشاهد إلى شركة المشروبات الغازية يتضح الغرض التجاري الكامن وراء الترفيه والتسلية.

غير أن ما يثير الانتباه كثيرا هنا هو كلمة «بيع»؛ فالبائع في أي صفقة تجارية هو صاحب السلعة ومالكها، وبالتالي تعود إليه حقوق الملكية التجارية والفكرية والمالية والأدبية لتلك السلعة، لكن ما يحير البال هو اعتبار زمن قصير من دماغ المشاهد ملكا لقناة تلفزيونية تبيعه لشركة تجارية عالمية!!

وما يحير البال أكثر هو أن تتم الصفقة في غفلة من المشاهد أولا، فهو ضحية عملية بيع وشراء، وهو طرف مباشر في الصفقة، دون أن تتم استشارته أو طلب رأيه، بالرفض أو القبول؛ فهو طرف غائب في عملية تعنيه بشكل مباشر.

وما يزيد البال حيرة أن القناة الفرنسية الأولى تبيع زمنا من دماغ المشاهد، أي إنها تتصرف في قيمة مجردة. وهي في واقع الأمر تسرق ولا تبيع، الشيء الذي يضعنا أمام معضلة أخلاقية جديدة.

فهل هذا زمن بيع المجردات؟

وتكشف عملية بيع الزمن القصير عن سرقة واضحة لدماغ المشاهد؛ فبعد أن كنا نبيع السلع تحولنا إلى بيع الأعضاء البشرية،واليوم نبيع زمنا من دماغ المشاهد؛ ويا لها من صفقة يصبح فيها المشاهد غافلا ليس عما يدور حوله فقط، وإنما داخل بدنه أيضا.

لقد كان الغرض من مناقشة كلام المدير العام للقناة الفرنسية الأولى الوقوف عند الأشكال الجديدة في الخطاب الإعلامي الغربي.

وهي أشكال متطورة جدا، ولا تجد أدنى حرج في الإعلان عن النوايا الحقيقية الكامنة وراء إنشاء محطة فضائية تلفزيونية معينة.

إن المصلحة الخاصة هي التي أدت إلى ظهور «قانون اللامات الثلاثة» في الخطاب الإعلامي الغربي المعاصر، ونقصد بهذا المفهوم.

La Loi des Trois L :
Lécher.
Lâcher.
Lyncher.

أي: التقرب والتملق والتزلف.

الترك والإهمال.

النقد والهجوم الشرس.

(1) يتلاعب هذا الكاتب الساخر بالكلمات بطريقة يسعى من خلالها إلى التهكم على النقاد الذين لا يعرفون إلا مديح الأصدقاء، وإن كانت أعمالهم الأدبية دون المستوى. وبالمقابل يواجهون إنتاجات فكرية أو أدبية باللامبالاة إذا كان كتابها شبابا أو مغمورين. لذا يتحدث الكاتب عن تلك العلاقة التي تقوم على التملق بين الفعل والفاعل، أي بين الناقد والعمل الإبداعي حينما يكون صاحبها معروفا أي صديقا للناقد، ويحكي كاتب فرنسي آخر، واسمه Alain Rémond كيف كان يتوصل من حين لآخر على عنوانه الشخصي أو في مقر المجلة التي يشتغل بها برواية جديدة لكاتب مبتدئ. وكان يقابل ذلك العمل باللامبالاة. غير أنه لما علم عن طريق وسائل الإعلام أن ذلك الكاتب المبتدئ ما هو إلا كاتب صحافي مشهور، وصديق حميم له، وأنه لجأ إلى الكتابة باسم مستعار، حينذاك بحث عن تلك الرواية ضمن ركام الأعمال المهملة في بيته، وقرأها، وكتب عنها مقالا مطولا، كله إعجاب بذلك العمل الإبداعي، وشجع القراء على اقتناء نسخة من تلك الرواية التي روج لها النقد كثيرا بعد أن أهملها طويلا. وتثير هذه الواقعة مسألة أخلاقية ترتبط بالعمل النقدي برمته وعلاقته بالإنتاج الأدبي، والتعريف به.

ففي البداية تكون علاقة وسيلة إعلامية معينة بموضوع معين (قضية، شخصية...) جيدة، وتبعا لذلك نسمع أو نشاهد أو نقرأ خطابات المديح والإطراء، وحينما تصل الأمور إلى مرحلة التوتر نجد وسيلة الإعلام تلك تتعمد إغفال الحديث عن موضوع معين، في انتظار الانتقال إلى مرحلة الهجوم والنقد اللاذع، بل السب والقذف والشتم أحيانا.

ومما يثير الانتباه أن «قانون اللامات الثلاثة» هذا يجد صداه في كثير من النماذج الحية، نتجنب الخوض في تفاصيلها لعدم علاقتها المباشرة بموضوع كتابنا هذا.

وقد عبر الكاتب الفرنسي Pierre Bouteiller عن التوجه الإعلامي المرتبط بالمديح على المستوى النقدي، في مرحلة الإطراء، بهذه الجملة :[1] «Sujet، verbe، compliment» بدل العناصر المعروفة في النحو الفرنسي: Sujet، verbe، complement.

وبذلك يتضافر النقد والإعلام في إثارة مسألة أخلاقية ترتبط بمدى الصدق والأمانة والمسئولية في خدمة الثقافة والتعريف ببعض نماذجها التي تستحق التنويه والتشجيع.

ولكي نوضح درجة تأثير وسائل الإعلام الغربي في الرأي العام نقترح جدولا بمبيعات بعض الصحف الفرنسية اليومية والأسبوعية في شهر مارس 2005 كما نشرتها يومية Le Figaro (2006)[1]:

اسم الصحيفة	عدد النسخ التي بيعت بالألف
Le Parisien + Aujourd'hui	498021 نسخة
L'Equipe	341025
Le Figaro	325289

(1) - Le Figaro du jeudi: 13/04/2006

320704	Le Monde
136945	Libération
116547	Les Echos
96232	La Croix
51639	L'Humanité
50633	France Soir

٢ - بعض القضايا الفكرية المعروضة في الغرب اليوم

نقترح فيما يلي التعريف ببعض القضايا التي يعيشها الغرب اليوم التي كان للإسلام فيها نصيب كبير من الحضور، ومن ثم النقاش الهادئ والصاخب، والهجوم العنيف واللاذع. ونحن لا ندعي أن وسائل الإعلام تلك ما هي إلا نسخة واحدة لشكل موحد في المواقف من الإسلام وقضاياه.

ففي الغرب توجد أقلام شريفة بالقدر الذي توجد فيه أقلام شريرة. وفي الغرب نوايا بريئة، وأخرى خبيثة... كما لا نعتقد أن الأمثلة التي نوردها الآن هي مجمل القضايا الفكرية المعروضة للنقاش في الغرب اليوم. وبعبارة أخرى: نسعى إلى عرض بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر.

٢-١ مظاهرات الشباب في فرنسا شتاء سنة ٢٠٠٥

عرفت باريس وضاحيتها وكذا كبريات المدن الفرنسية ثورة شبابية عارمة نتيجة لسنّ الحكومة اليمينية الفرنسية قانونا جديدا في الشغل يعطي الحق لأرباب العمل التخلي الفوري عن خدمات شاب مستخدم يلج مجال الشغل للمرة الأولى بصفة تدريبية. ويتم الاستغناء دون تقديم مسوغات أو خشية التعرض لمضايقات مرتبطة بقانون الشغل.

كان سخط الشباب عارما على هذا القانون الجديد، ولم تهدأ العاصفة إلا بعد اضطرار الحكومة لسحبه مؤخرا. وقد حدثت فوضى كبيرة، وتم تحطيم واجهات كثير من المحلات التجارية، وتم اعتداء بالضرب على كثير من المواطنين، وتم حرق عدد كبير من السيارات العمومية والخاصة، وحصلت مواجهات عنيفة بين الشرطة وهؤلاء الشباب.

ونقلت وسائل الإعلام العالمية صورا مرعبة عن تلك الأحداث التي صاحبها نقاش فكري وسياسي صاخب، سواء في فرنسا أو خارجها. وبدأت كثير من الزعامات والتيارات في توجيه أصابع الاتهام الصريحة والمبطنة إلى الأصول الثقافية لأولئك الشبان المغاربيين الحاملين للجنسية الفرنسية، وإلى «إسلام الضاحية الباريسية» وبقية الضواحي الفرنسية.

وحاولت كثير من الأقلام الربط بين عنف الشباب وتدينهم، وقامت معادلة غريبة وعجيبة تجعل عنف الشباب مرتبطا بجذورهم الإسلامية!.

ودخل كثير من القادة السياسيين وزعماء الأحزاب والنقابات والجمعيات دائرة تهييج العواطف، وتأليب الرأي العام ضد الشباب الفرنسي المغاربي الأصل، وطفت على سطح الأحداث تلميحات وتصريحات تدعو إلى ضرورة التأكيد على «علمانية» الجمهورية الفرنسية الخامسة، وعلى تطبيق القانون الخاص بمنع ارتداء الحجاب في الأماكن العمومية بشكل صارم. وعادت لواجهة النقاش قضية «اندماج» المهاجرين المغاربيين خصوصا داخل المجتمع الفرنسي. وانطلقت دعوات مستفزة تخير الشباب بين «حب فرنسا أو الرحيل عنها».

ونتذكر جيدا الضجة التي أحدثها وزير الداخلية الفرنسي Nicolas Sarkozy في خضم تلك الأحداث، حينما كان يكرر

خرجاته الإعلامية، وحينما نعت الشباب الفرنسي بأقبح الصفات، وقال لهم بشكل صريح ومباشر: «من لا يحب فرنسا، عليه أن يرحل عنها»!.

«حب فرنسا أو الرحيل عنها» شعار قديم جديد، رفعته منذ سنة 1983 «الحركة المستقلة للحريات» أي MIL: Mouvements Indépendant des Libertés، وهي الجناح المتشدد لليمين الفرنسي الحاكم. لقد كان اليمين الفرنسي يربط دائما الأحداث الاجتماعية بما فيها من قلاقل واضطرابات بموضوع الهجرة المغاربية إلى فرنسا خصوصا، وأوروبا عموما.

وتنبغي الإشارة إلى أن شعار «حب فرنسا أو الرحيل عنها» ما هو إلا ترجمة حرفية للشعار نفسه المتداول في الولايات المتحدة الأمريكية: «America، love it or leave it».

وقد رأت كثير من وسائل الإعلام الأنكلو-ساكسونية في تلك الأحداث التي هزت فرنسا دليلا على انهيار النموذج الاجتماعي - الثقافي الفرنسي. وحاولت بعضها أن تضعها في إطار «ثورة» يقودها «العرب» ضد الفرنسيين!!

بل إن زعيما سياسيا مثل الوزير الأول الإيطالي السابق Silvio Berlusconi كان لا يتوانى عن التنبيه إلى أن إيطاليا لا يمكنها أن تكون بلدا متعدد الأجناس والثقافات بأي حال من الأحوال.

وقد اعتبرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية تلك الأحداث إيذانا ببداية «حرب حضارية»! لا تختلف في شيء عن مفهوم «حرب الأفكار» الذي أثارته الإدارة الأمريكية، وخصوصا وزارة الدفاع الحالية.

غير أن كثيرا من الصحف أشارت إلى أن الضواحي التي تعرف حضورا مكثفا للشباب الفرنسي ذوي الأصول المغاربية هي التي

كانت أقل عنفا من الضواحي التي يعيش فيها فرنسيون أو أفارقة أو آسيويون. ومرد هذا الهدوء عند هذا الشباب الفرنسي المغاربي الأصل إلى جملة من العوامل، من بينها:

- العامل الديمغرافي: لقد أظهرت الإحصائيات الرسمية الصادرة عن وزارة الداخلية الفرنسية أن الأحياء التي يقطنها الشباب المغاربي كانت أقل شغبا من تلك التي يسكنها الأفارقة مثلا. ولعل هذا الهدوء يعود إلى قدم الهجرة المغاربية إلى فرنسا من الناحية التاريخية، وذلك بالمقارنة مع موجات هجرات أخرى قدمت من إفريقيا السوداء أو آسيا أو تركيا مثلا.

- العامل الاجتماعي: ونقصد به الدور الذي قامت به كثير من جمعيات المجتمع المدني التي تعاونت مع الشرطة بشكل إيجابي للحد من ظاهرة العنف عند الشباب ذوي الأصول المغاربية منذ عقود طويلة.

- العامل الديني: لقد تبين للشرطة الفرنسية أن الأحياء التي يقطنها مغاربيون أو فرنسيون من أصول مغاربية يقل فيها استهلاك الخمور بشكل مثير للانتباه، وبالتالي يقل فيها استعمال العنف.

لقد كانت مصالح وزارة الداخلية الفرنسية تعي جيدا أن الشبان الذين قادوا مظاهرات الضواحي ليسوا بالضرورة مغاربيين، أي مسلمين. ومع ذلك وجدنا الإعلام الفرنسي يتحدث عن «ثورة» يقودها «إسلام الضاحية» ضد «الجمهورية الفرنسية الخامسة»!.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الجمعيات الإسلامية الفاعلة في فرنسا دعت المسلمين إلى التزام الهدوء، واحترام مبادئ الجمهورية الفرنسية، والإقرار بمبدأ العلمانية، وحسن التعامل مع المواطنين الفرنسيين. ومما يثير الاستغراب أنه وصل الأمر ببعضها إلى إصدار «فتوى» تحرم أعمال الشغب والفوضى باسم الشريعة الإسلامية.

لقد أحدثت تلك الفتوى نقاشا واسعا داخل المجتمع الفرنسي، وربما كانت نتائجها سلبية على مسلمي فرنسا أكثر من الفئات الاجتماعية الأخرى، وذلك للاعتبارات التالية:

- لقد أحدثت الفتوى خلطا بين المسلمين والمخربين، أي بين الإسلام والفوضى. فكأن الشباب المتمرد في الضواحي على قانون الشغل الجديد مسلم برمته، وكأن كل مسلم شاب شارك في المظاهرات قام بأعمال التخريب. فهذا الخلط الواضح بين ممارسة دينية وطريقة عنيفة في الاحتجاج أضر كثيرا بالمسلمين في فرنسا، وأوروبا عموما. ولا شك أن هذا كله زاد من وضعية الإسلام المتأزمة أصلا في الغرب.

- تضع تلك الفتوى مسلمي فرنسا في واجهة الأحداث. فكأن فرنسا لا تقطنها إلا طائفة مشاغبة واحدة، وكأن الطوائف الأخرى، سواء كانت دينية أو ثقافية، لا تلجأ إلى العنف أحيانا للتعبير عن مطالبها أو مواقفها. وكان يمكن للفتوى أن تكون مؤثرة من الناحية الاجتماعية لو صدرت في شكل رسالة جماعية وقعتها طوائف دينية أخرى؛ وهو ما يدل على التلاحم والتعاون بين جميع مكونات المجتمع الفرنسي دونما تمييز بين مكوناته الدينية والاجتماعية والفكرية والثقافية.

- حينما نتحدث عن «الفتوى» فهذا يعني الشريعة الإسلامية، أي مجال الفقه. أما أحداث الشغب التي صاحبت المظاهرات الرافضة لقانون الشغل الجديد فتدخل ضمن الأفعال التي يرتكبها مواطنون فرنسيون تسري عليهم قوانين الجمهورية الفرنسية. وبعبارة أخرى: إذا كانت العقوبة الصادرة عن «فتوى» دينية زجرية، فإن عقوبة الشغب تدخل ضمن قانون الحق العام. وانطلاقا من هذا المنظور تختلف طبيعة كل عقوبة بحسب المرجعية «الفقهية» (دينية أو علمانية) التي تستند إليها.

- وحين تطالب هذه الجمعية الإسلامية في فتواها الشباب

الفرنسي بالتزام الهدوء، وعدم استعمال العنف والقوة باسم تعاليم الإسلام، فهذا يعني - حسب كثير من المحللين والباحثين الفرنسيين - إعطاء الأسبقية والأفضلية للقانون الديني على حساب القانوني الوضعي للجمهورية الفرنسية، وهذا يعني إحداث تشكيك أو خلل أو اضطراب أو لبس في مبادئ فرنسا العلمانية.

- منحت هذه الفتوى لأولئك الشبان المتمردين «هوية دينية» انطلاقا من انتماء طائفي ثقافي معين. ومن شأن هذه الهوية الدينية أن تحدث تعارضا مع علمانية فرنسا التي تمنح مواطنيها هوية «وطنية». وبعبارة أخرى: أثارت الفتوى معارضة بين «المؤمن » و«المواطن».

- والنتيجة أن تلك الفتوى أضرت كثيرا بالمسلمين في فرنسا؛ لأنها وضعتهم في موقع الاتهام الصريح بالمشاركة المعنوية والفعلية في أعمال الشغب والتخريب.

ومما يثير الانتباه أننا لم نقرأ «فتاوى» أصدرتها جمعيات دينية مسيحية أو يهودية أو بوذية أو مجوسية أو غنوصية... تدعو أتباعها إلى الهدوء باسم تعاليم دينها أو مذهبها.

ومما يثير الانتباه أيضا أن تلك الجمعية التي أصدرت الفتوى اتخذت مبادرتها تلك دون الرجوع إلى بقية الجمعيات الإسلامية الأخرى العاملة في فرنسا؛ وهو ما يدل على غياب التنسيق بين الجمعيات الإسلامية الفرنسية؛ الأمر الذي يقوي من مقولة غياب الناطق الرسمي باسم الإسلام في فرنسا مثلا، ويعطي الانطباع بفرقة المسلمين وتشتت اتجاهاتهم ونزعاتهم.

ولا يمكن أن يكون الإنسان ضد الفتوى، ولكن لا يمكن أن يكون مع الفتوى التي لا تراعي عناصر المحيط والسياق والأحوال أو تلك التي

(1) - Jean Daniel: 2005 Une troisieme blessure identitaire, pp. 19-20. In: Le Nouvel Observateur, N. 2141. Du 17 au 23 novembre 2005.

تكون عبارة عن بادرة غير مدروسة العواقب.

ويعتقد Jean Daniel (2005)[1] مدير المجلة الأسبوعية Le Nouvel Observateur أن أحداث الضواحي الفرنسية تمثل ثالث جرح مس الهوية الفرنسية، بعد وصول اليمين المتطرف إلى الدور الثاني في الانتخابات الرئاسية سنة 2002 (الحدث الأول)، وبعد التصويت ضد الدستور الأوروبي يوم 29 مارس 2005 (الحدث الثاني).

هذا الجرح المرتبط بالهوية أعاد إلى دائرة النقاش حديثا قديما جديدا حول مفهوم الاندماج بمعناه الثقافي، وما يتعلق به من إدماج أو استلاب.

فالاستلاب Assimilation يعني قبول الآخر على أساس نفيه لفكرة الاختلاف. فالآخر (أي المهاجر المغاربي إلى أوروبا مثلا) يتم استقباله دون تحفظات ودون تمييز، لكن يطلب منه التخلي بصفة نهائية عن شخصيته الثقافية الخاصة، وذلك من أجل أن يتبنى قيم المجتمع الوافد عليه، من عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق وتصرفات...

وحين يرفض ذلك الآخر فكرة الاستلاب هذه التي تعني التنكر للهوية الثقافية الأصلية، والانسلاخ عنها بشكل كلي لا رجعة فيه، فإنه يبقى أمامه الاحتفاظ بثقافته الخاصة، والعيش داخل المجتمع الوافد عليه. لكن من شأن هذه الوضعية الثقافية المزدوجة أن تجعل الآخر يعيش في اختلاف دائم ونهائي مع المجتمع الجديد الذي قرر الاستقرار فيه. ويبقى لعامل الزمن دوره في صقل ثقافة الآخر الأصلية وكذا ثقافة البلد المضيف، وهو ما يسمى بالاندماج Intégration.

ونلاحظ أنه في حالة الاستلاب أو الاندماج نطلب مجهودا كبيرا من طرف الآخر فقط. أما المجتمع الذي وفد عليه الآخر (المضيف) فلا

يكترث لحالته النفسية، ولا يعبأ بظروفه الخاصة، ولا يهتم بوضعيته الاجتماعية والاقتصادية والمادية والعاطفية... ومن شأن فكرة الجهد التي نطالب بها الوافد وحده أن تشعره بقيمته المتدنية داخل المجتمع الجديد الذي فضل المهاجر الانتقال إليه، والعيش فيه.

ولعل بريطانيا تمثل حالة واضحة لنموذج الاندماج القسري القائم على فكرة الاستلاب، وذلك من خلال الشعار المعروف: British Way of Life، أي «طريقة العيش البريطانية». وقد أثبت هذا النموذج حدوده أي فشله الكبير. ولتجاوز هذه الوضعية تم الحديث عن الاندماج بمعنى «تلاقي الفرص»، و«التعدد الثقافي»، و«الاحترام المتبادل»، و«الحق في الاختلاف».

ولكي تظهر كثير من البلدان الأوروبية جديتها في التشجيع على ثقافة الاختلاف، والتأكيد على نجاح سياستها الثقافية الإدماجية، روجت لمفهوم قديم جديد، وهو ما يسمى «التمييز الإيجابي» La Discrimination positive. والمقصود تقديم نماذج ثقافية ناجحة لكثير من الأفراد المنحدرين من أصول مهاجرة.

ففي فرنسا مثلا تعطى الفرصة لصحافي فرنسي (من أصول جزائرية) لتقديم نشرة الأخبار المسائية مثلا، وذلك للتأكيد على أن قانون الهجرة الجديد في فرنسا ليس عنصريا، وإنما يسعى إلى حماية المجتمع الفرنسي من التطرف.

ويعود تعبير «التمييز الإيجابي» إلى الناشط الحقوقي الأمريكي (الزنجي) James Baldwin الذي دعا في نهاية السبعينيات من القرن العشرين إلى تشجيع بعض السود ثقافيا حتى يتم القضاء على شبح العنصرية داخل المجتمع الأمريكي، وحتى تتم تهدئة ثورات الأحياء الهامشية ذات الأغلبية السكانية السوداء.

---

(1) سنعود بتفصيل لهذه القضية في الفصل الثاني من هذا العمل المتواضع.

٢-٢ قضية العلمانية

أثيرت قضية العلمانية في الغرب خصوصا بعد تنامي الإحساس الديني لدى فئة عريضة من الشباب الأوروبي الذي يمر بفترة من الفراغ الفكري والنفسي والعاطفي والوجودي.

ويثير النقاش حول العلمانية مسألة درجة ملاءمة تعاليم الإسلام للاختيار الأوروبي الداعي إلى فصل الدين عن الدولة، أو بتعبير أدق الداعي إلى إبعاد ممارسات الكنيسة عن ممارسات السلطة السياسية. فالأمر لا يتعلق بمسألة الفصل بين الصلاحيات فقط، وإنما بين أنماط التفكير والتدبير والتسيير، والتمييز بين عقلية دينية تتحدث باسم الكنيسة البابوية، وبين عقلية متمردة على هذه السلطة الزائدة لدى الرهبان والآباء والقساوسة.

فالعلمانية - في أصولها - إنما كانت تقصد في حديثها عن الدين المسيحية الكاثوليكية، وليس الدين بمعناه المطلق.

غير أن سؤال العلمانية حينما يثار في أوروبا اليوم يرتبط مباشرة بالإسلام؛ لأنه دين ودنيا [1].

٢-٣ قضية الرسوم الكاريكاتيرية

نود الإشارة هنا إلى قضية الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم باعتبارها مرحلة تصعيدية جديدة ضد الإسلام والمسلمين عموما إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001. فهذه الرسوم ليست حدثا منعزلا، وإنما تدخل في

(1) عبدالكريم بوفرة: حرب القيم. قراءة في الخطاب الإعلامي الغربي بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. منشورات المجلس العلمي. وجدة. المغرب.

(2) نعكف حاليا على تحليل المادة الصحفية التي قمنا بجمعها إثر صدور الرسوم الكاريكاتيرية الدانماركية. وسوف نعمل على تحليلها تحليلا وافيا في دراسة مستقلة إن شاء الله.

سياق ثقافي عام يتعمد الإساءة للدين الخاتم.

فانهيار برج التجارة العالمي في نيويورك نتج عنه انهيار لجملة من المفاهيم والتصورات الفكرية والثقافية [1] التي كان يتباهى بها الغرب العلماني والعقلاني. ولما أعلنت الإدارة الأمريكية «الحرب على الإرهاب» دخل الفكر الغربي مرحلة جديدة، قوامها شن معركة ضد «مفهوم» غامض وملتبس، يتمطط حسب المصالح والأهواء والرغبات.

وتأتي الرسوم الكاريكاتيرية في سياق حملة ضد كثير من الممارسات والطقوس والعادات ذات الصلة المباشرة بالإسلام. وما قضية «الحجاب» في فرنسا إلا حلقة جديدة في سلسلة التصعيد تلك [2]. لذا ينبغي إدراج كثير من الأحداث المسيئة للإسلام في الغرب عموما ضمن توجه عام يكشف عن مرحلة جديدة في التعامل مع الإسلام وقضاياه بشكل صريح ومباشر، ويتعمد الإساءة وإلحاق الأذى النفسي والضرر المعنوي ضد الدين الحنيف وأهله، بعد أن كانت المسألة تتم فيما سبق بالهمز واللمز، كما توضح ذلك كثير من الأعمال الاستشراقية ذات الصلة بالتبشير والاستعمار.

هذا التوجه الجديد يتميز بالجهر بالعداء للإسلام وأهله في غالب الأحيان. وهو توجه يعبر عن انفعال واضح، وعن نفاذ صبر، وعن نقص معرفة (إن لم يكن جهلا) من طرف جيل جديد داخل الغرب بالإسلام وقضاياه. هذا الجيل الصاعد في الغرب الذي يسعى لكي يحمل لواء استشراق جديد يجعلنا ننظر إلى «دراساته وتحليلاته» بكثير من القلق والريبة، للطريقة المتسرعة التي يكتبون بها أعمالهم «الأكاديمية»، لدرجة أصبحنا «نترحم» فيها على ذلك النوع من الاستشراق القديم الذي كانت تتحكم فيه نوازع توسعية، ومع ذلك كانت دراساته تتميز بالعمق والإحاطة في الدراسة والتحليل.

لما ظهرت الرسوم الكاريكاتيرية في بداية شهر أكتوبر 2005 في

الدانمارك كان ينبغي ربط ظهورها في تلك الفترة بالذات باحتفال حزب «الشعب الدانماركي» بمرور الذكرى العاشرة على تأسيسه، وهو حزب يميني متطرف. ويمتلك هذا الحزب الأغلبية النيابية، ذلك أن تسعين عضوا منه هم أعضاء في البرلمان الدانماركي.

كما أن هذه الرسوم ظهرت في وقت شددت فيه الحكومة الدانماركية في قوانين الهجرة، والتجمع العائلي، وطلب الحصول على الجنسية الدانماركية. وينضاف إلى هذا كله ضرورة إيداع جملة من الضمانات، وضرورة الإلمام باللغة الدانماركية. وتتزامن هذه الإجراءات مع قرار الحكومة سحب الدعم المالي عن أي جمعية تدافع عن حقوق المهاجرين.

في هذا الجو النفسي والثقافي والاجتماعي المشحون بالكراهية والعنصرية للمهاجرين (خصوصا حينما يكونون عربا مسلمين)، تجرأت الصحيفة اليومية الدانماركية Jyllands Posten على نشر اثني عشر (12) رسما كاريكاتيريا فيها إساءة واضحة ومقصودة ومتعمدة للرسول الكريم.

وما يثير الانتباه بداية هو عدد تلك الرسوم، ونقصد به رقم 12، فهذا الرقم يحيلنا في التوراة على أسباط يعقوب عليه السلام، كما يشير إلى نسل إسماعيل عليه السلام، ويذكرنا بشهور السنة البابلية، ويعود بنا تاريخيا إلى فكرة العرب العاربة، وكذلك فكرة العرب المستعربة. فالمسألة تبدو وكأنها تصفية حساب مع جملة من المعاني والقيم والرموز التاريخية المرتبطة بالرسول الكريم. فرقم 12 هو رقم سحري في الثقافة العربية القديمة، قبل ظهور الإسلام وبعده. فهل الأمر يتعلق بجرأة تصل إلى حد استحضار جملة من المعاني القديمة التي كان لها دور في تكوين العقل العربي من النواحي الثقافية والدينية والفكرية والوجودية. فللوهلة الأولى تبدو تلك الرسوم ذات أبعاد تتجاوز مسألة التعبير إلى التعيير.

وعلى إثر الضجة العارمة التي اجتاحت العالم الإسلامي والعالم الحر عقب نشر تلك الرسوم، بادرت 143 جريدة في 56 دولة إلى إعادة نشرها، كاملة أو ناقصة، تعبيرا منها عن تضامنها مع الصحيفة الدانماركية، و«دفاعا» عن مبدأ مقدس اسمه «حرية التعبير»!.

إن إعادة نشر تلك الرسوم في أكثر من جريدة وفي أكثر من بلد كان الغرض منه التخفيف من حدة الضغط النفسي الذي كانت تتعرض له الجريدة اليومية الدانماركية، وكذلك «تشتيت» الغضب، للتقليل من حدته وفعاليته، وأخيرا «تغييب» المسئول الأول والمباشر عن نشر تلك الرسوم، أي المبادرة إلى اقتسام المسئولية، وتحمل تبعاتها المعنوية، وربما القانونية.

وتذكرنا هذه الرسوم الكاريكاتيرية بما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة، بصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فقد اجتمعت القبائل العربية بزعامة قريش، وقررت التصفية الجسدية للرسول الكريم، وقامت بتعيين فرد عن كل قبيلة وعشيرة يشارك في ذلك العمل الإجرامي. لقد كان الغرض من تلك المشاركة الجماعية التعبير عن تضامن العشائر العربية، واتفاقها على تصفية الدعوة المحمدية لما تمثله من خطورة على مصالح قريش وحلفائها. لذا كان لا بد من عمل جماعي يسعى إلى صد خطر يتهدد المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للقبائل العربية في مكة والنواحي، وكان لا بد من المشاركة الجماعية في محاولة القتل تلك،

---

(1) انظر مثلا:

- الأسبوعية المغربية الصادرة باللغة الفرنسية Tel Quel، العدد 212. من 11 إلى 17 فبراير 2006.

- الباحث الأنتروبولوجي التونسي يوسف صديق في أسبوعية Jeune Afrique الباريسية، السنة 46، العدد 2355، من 26 فبراير إلى 04 مارس 2006.

- الباحث الجزائري مالك شبل في الأسبوعية نفسها والعدد نفسه.

- الباحث الجزائري مالك شبل أيضا في أسبوعية Paris Match الباريسية، العدد 2907، من 03 إلى 09 فبراير 2005.

حتى «يتشتت» دم الرسول الكريم بين القبائل، أي تغييب المسئول المباشر عن تلك المحاولة!!.

ولما انتقلت قضية الكاريكاتير إلى العالم العربي انطلقت بعض الأقلام (1) لتثير قضية إمكانية تصوير الأنبياء والرسل بشكل فيه جرأة أكثر من ذي قبل، ذلك أن موضوعا من هذا القبيل تناوله كثير من المثقفين العرب قبل نشر الرسوم بزمن طويل.

فهذا الباحث الأنتروبولوجي التونسي يوسف صديق يتوقف عند الجزء الثالث في مشروعه الضخم الذي يقوم على تصوير القرآن الكريم على شكل «رسوم متحركة»، ويعتبر كاريكاتير الصحيفة الدانماركية مسيئة لمشاعره العربية والإسلامية. كما يعتبر أن تلك الرسوم تجاوزت حدود «العفة». والعفة - حسب اعتقاده - شرط أساسي لفهم الثقافات والحضارات، وبالتالي احترامها انطلاقا من مبدأ إنساني أخلاقي عام، يخاطب الإنسان في بعده الإنساني.

أما الباحث الجزائري الأصل مالك شبل فيعتبر تلك الرسوم «متوسطة الجمال» من حيث الشكل، ويدرجها في سياق صراع قديم بين الغرب والشرق، ويشبهه بذلك الخلاف القائم دوما بين «الكلب والقط». ويزعم أن تلك الرسوم أثبتت أن الشرق ما يزال تحت تأثير كل ما له صلة بالمقدسات والخرافات، بينما تمكن الغرب من إيجاد مسافة فاصلة بينه وبين فكرة الإله. وبعبارة أخرى، انتقل الغرب إلى المرحلة العلمية الوضعية في الوقت الذي يصر فيه الشرق على العيش في المرحلة الأسطورية ما قبل التاريخية.

وتظهر هذه الإشارات إلى أن مسألة الرسوم هذه تجاوزت إطار الكاريكاتير لتخوض في قضايا عامة ترتبط بالشرق في علاقته بالغرب، وكذلك الغرب في مواقفه إزاء الشرق.

وتثير تلك الرسوم قضية «حرية التعبير» على المحك، باعتبارها

شعارا يخضع لمقاييس ومعايير ومكاييل غير متكافئة بين الديانات والثقافات والحضارات؛ وهو ما يعني تحول «حرية التعبير» إلى شعار نظري أكثر من كونه ممارسة فعلية حقيقية.

وحينما نشير إلى قضية الرسوم الكاريكاتيرية وما أثارته من نقاش، وما تلاها من جدال إعلامي صاخب فلكي نثير الانتباه إلى أهمية «الصورة» في إيصال خطاب قد يكون «مؤثرا» أكثر من عشرات الخطب والكلمات.

ويزداد هذا التأثير حينما تستفيد تلك الرسوم مثلا من التقنيات الحديثة في التعبير والتواصل، مع ما يعنيه ذلك من سرعة فائقة في نقل الخبر ونشره وتداوله، وتبادل المعلومات حوله، في ظرف زمني وجيز، حطم المسافات، وأزال الفواصل والموانع والحدود، بل تعدى الخصوصيات والحرمات، ذلك أن قضية مثيرة إعلاميا مثل الرسوم الكاريكاتيرية تقتحم بيوتنا، وتستوطن شاشات حواسيبنا بدون استئذان منا، بل تفرض نفسها علينا نظرا لما تمثله وسائل الإعلام من قوة في التأثير، وتوجيه للرأي العام، وكذلك تضليله في كثير من الأحيان.

كما أن الحديث عن حق الإنسان في التعبير - ضمن حقوق أخرى للإنسان المعاصر - تجعل مسألة الرسوم الكاريكاتيرية مثلا مناسبة للخوض في قضية أخلاقية ترتبط باحترام الديانات والمذاهب والمعتقدات.

فهل الإساءة المقصودة إلى نبي من الأنبياء، أو دين من الديانات تعني الحرية في التعبير الحر عن الرأي الشخصي أو الموقف الفردي؟

وهل يمكن للإهانة مثلا، مع ما تعنيه من شتم وسب وقذف، أن تكون طريقة جديدة للتطاول على الأفراد والجماعات، لا لسبب إلا

لكونهم آخرين؟

وهل الجهر بالإلحاد يعني دوما الحق في التعبير والاعتقاد؟

وإذا كان الأمر كذلك: فماذا يعني الجهر بالإيمان؟ ألا يعني هذا أيضا حقا من حقوق الإنسان الوجودية؟

وأين يمكن أن نضع مسألة «الأخلاق» ضمن سياق هذا النقاش الفكري الصاخب، خصوصا أن الإنسان ينبغي أن يكون «أخلاقيا» بطبعه؟

إن مسألة الرسوم الكاريكاتيرية ينبغي أن تكون مناسبة لنا ولغيرنا للتأكيد على أهمية احترام مشاعر الإنسان وقيمه الوجودية، وذلك بالعودة إلى البعد الإنساني أي الأخلاقي عند ذلك الإنسان.

٢-٤ قضية الاستعمار

أثيرت في فرنسا قضية عجيبة يدعو المدافعون عنها إلى إيلاء أهمية كبرى لما أسموه «الجوانب الإيجابية» للاستعمار الفرنسي لبلدان المغرب العربي وإفريقيا السوداء. فالاستعمار - حسب هذا التصور الجديد - لم يكن كله شرا، بل إنه أسهم في «تمدين» الشعوب المحتلة، كما حمل لهم كثيرا من التجارب والخبرات.

وقد وصل الأمر إلى درجة تبني البرلمان الفرنسي (أي الجمعية الوطنية) لقرار صدر في 25 فبراير 2005 حول «المظاهر الإيجابية للاستعمار الفرنسي لمستعمراتها القديمة في إفريقيا والمحيط الهادي». ودعا البرلمانيوين المصوتون لصالح هذا القرار إلى ضرورة تدريس تاريخ الاستعمار الفرنسي في جوانبه الإيجابية لتلاميذ

(1) تضم لائحة العريضة أسماء مؤرخين لهم وزنهم الكبير داخل فرنسا وخارجها. ولعل مواقفهم المناهضة لذلك القرار يحرج كثيرا من رجال السياسة الذين كانوا يعتقدون أن قرارات البرلمان يمكن أن تغير من مغزى الأحداث التاريخية.

المرحلة الابتدائية.

وقد ثارت حفيظة كثير من المؤرخين والمثقفين والمفكرين الفرنسيين، ونشروا عريضة تطالب الحكومة الفرنسية بضرورة سحب ذلك القرار، وذلك لتعارضه مع الفصل 34 من الدستور الفرنسي الذي يفرض على السياسيين الاهتمام فقط بمستقبل البلاد، وبالتالي لا علاقة لهم بتحديد ماضي فرنسا، أو الحديث عن تاريخها، لأن ذلك لا يدخل ضمن اختصاصاتهم الدستورية.

هذا من حيث الشكل، أما جوهر القضية فيرتبط بضرورة تحديد الحدود الفاصلة بين العمل الأكاديمي والنشاط السياسي. فالسلطة التقريرية والحصانة البرلمانية والحقيبة الوزارية لا يمكن أن تكون مسوغا للخوض في قضايا ثقافية، أو فكرية، أو سياسية. وإذا اختلطت الأمور بين هذين الجانبين فهذا يعني شططا في السلطة، واعتداء صارخا على اختصاصات الغير، وجرأة على إبداء الرأي في موضوع لا تتوفر فيه العناصر التي تساعد على إبداء رأي من هذا القبيل، من مناهج ومادة علمية وبحث أكاديمي وتجربة في مدرجات الجامعات والمعاهد والأكاديميات [1].

ولعل هذا السعي لتشويه التاريخ عن طريق فرض قرارات سياسية على شكل مشاريع قوانين تكتسب شرعية من الناحية القانونية والدستورية لا يختلف في شيء عن تلك السياسة التي تتبعها الإدارة الأمريكية الحالية في «حربها على الإرهاب».

وما إنشاء «مكتب التأثير الاستراتيجي» Office of Strategic Influence التابع لوزارة الدفاع الأمريكية إلا نموذج لواحد من الأجهزة العديدة التي كانت، وما تزال، تعمل من أجل إبداء وجهة النظر الأمريكية إزاء ما يحصل في الشرق الأوسط من أحداث عنف دامية، يذهب ضحيتها المدنيون الأبرياء. ويمثل الإعلام الواجهة الأساسية التي يتحرك ضمنها هذا المكتب وغيره، وذلك من أجل

تقديم وجهة النظر الأمريكية الرسمية حول الحروب التي تخوضها الإدارة الأمريكية على تقديم المعلومات الإخبارية، أو الصور، أو التقارير، وذلك بطريقة احترافية كبيرة، وفي إطار حملة إعلامية متكاملة.

وتعبر الحالتان الفرنسية والأمريكية عن «قلق» و«اضطراب» واضحين، ليس فقط في التعامل مع التاريخ، وإنما في الاستفادة منه. والقلق ميزة الليبرالية الجديدة، فرب العمل يخشى على مستقبل مقاولته، والمستخدم يتوقع أن يفقد وظيفته في أي لحظة.

وما صدور أصوات وأقلام تذكر بالمجازر البشرية التي حصلت إبان الاستعمار الغربي لكثير من البلدان الإفريقية إلا رد فعل على ذلك التوجه السياسي الذي يعتبر احتلال الدول مسألة إيجابية، بل ضرورية أحيانا باسم شعار ابتدعته كثير من القوى الاستعمارية التي تسعى للمحافظة على هيمنتها وعلى مصالحها في مناطق نفوذها القديمة، ونعني به «الحق في التدخل» Le Droit d'Ingérence.

وصَاحَبَ الحديث عن المجازر البشرية للاستعمار حديثٌ عن مجزرة أخرى أخطر وأشد، أطلق عليها أصحابها اسم «المذبحة الثقافية». والمقصود بهذا التعبير أن النواحي السلبية للاستعمار لا تكمن فقط في قضية احتلال بلد، والتنكيل بأهله، ونهب خيراته، وسلب ثرواته، وامتصاص معادنه وكنوزه، وإنما يعني الاستعمار أيضا حملة على الهوية الثقافية، ومحاولة إيجاد أشكال من التبعية الفكرية، والتقليد على مستوى العادات والسلوك واللغة. فالاستعمار يمس الهوية الثقافية للشعوب. والهوية هي أساس تشكيل الوعي الوطني لدى الأفراد والشعوب. لذا فالتحرر لا يقتصر فقط على جلاء الاحتلال، وإنما زوال كثير من الممارسات الثقافية المرتبطة بسلطة الاستعمار باعتبارها سلطة القوة والهيمنة التي تمثل أساس وجوده وحضوره.

٢-٥ أشكال جديدة في الهوية الثقافية الغربية.

أوجد التطور الصناعي التكنولوجي، وارتفاع مستوى المعيشة، وظروف الحياة السريعة أشكالا جديدة للتعبير عن الانتماء لثقافة تساير مرحلة الحداثة وما بعدها في الغرب اليوم. ذلك أن تطور الأفكار وتغير العقليات جعل الفرد يتصرف بشكل دائم التحول من طور إلى آخر، ومن مودة إلى أخرى. هذا الانتقال الدائم في الأحوال والهيئات يعبر عن نفسية مضطربة، تسعى للبحث عن الحلول المثالية لكثير من المشاكل ذات الطبيعة الوجودية التي تتخبط فيها.

ونقترح فيما يلي تعريفا وجيزا لبعض تلك الأشكال الثقافية الجديدة، على سبيل المثال لا الحصر. والغرض من هذا كله إثارة الانتباه إلى المستوى الفكري والأخلاقي الذي وصل إليه هذا الغرب نتيجة التقدم الذي انتهى إليه. وينتج عن هذا طريقة عميقة في تحليل كثير من المظاهر الاجتماعية، وموقف متحفظ إزاء ما يفد على هذا الغرب من أشكال ثقافية، وأنماط معرفية تختلف عن ثقافته الأصلية. وهكذا سوف يبدي هذا الغرب «حساسية» زائدة عن المألوف حينما يكون الإسلام وما يتصل به من قضايا موضوعا للدراسة والبحث.

٢-٥-١ ثقافة الجسد.

سبقت الإشارة إلى ظهور فكرة التحرر الجنسي في الغرب عموما في السبعينيات من القرن الماضي. وقد نتج عن هذه الفكرة حرية الممارسة الجنسية بمعناها المطلق، أي دون قيد أو شرط، ودون مراعاة للمخاطر النفسية والصحية والأخلاقية والاجتماعية للفوضى الجنسية. وهكذا قامت جمعيات نسائية تدعو إلى الدفاع عن حق الفتاة في الإجهاض، بعيدا عن أي وازع ديني أو أخلاقي.

وترتبط ثقافة الجسد اليوم بالدعوة إلى حق الفرد المطلق والكلي في التصرف في جسده بالشكل الذي يريده، ما دام الجسد ملكا له وحده. فملكية الفرد للجسد تعطي له حرية التصرف فيه، ولا

يحق لأي كائن أن يحاسبه على أدنى تصرف يصدر عنه. فنحن أمام فكرة «جديدة» ترتبط بالدعوة إلى الحق في الملكية الفردية للجسد البشري، ولا يقترن هذا الحق بالضرورة مع إحساس بالمسئولية، أو وعي بالواجبات المفروضة على الفرد الذي «يسكن» ذلك الجسد. إنها ملكية غير مقيدة بالعواقب الوخيمة أو التبعات الخطيرة لأي شطط في استعمال الفرد لبدنه، أو أي مبالغة في التصرف فيه، حتى وإن كانت المخاطر الصحية واردة بشكل كبير ومثير للقلق الحقيقي.

وهكذا تصبح ممارسة الجنس مثلا خارج الأعراف والتقاليد، وخارج حدود الدين والأخلاق، تصبح ممارسة مطلقة ما دامت لا تعترف بمؤسسة الزواج التي أصبحت تقليدية حسب هذا التصور الجديد.

فقد ذكرت إحصائية رسمية أن سنة 2005 وحدها عرفت ارتفاعا مهولا في نسبة الولادات غير الشرعية، أي خارج مؤسسة الزواج، وصلت إلى 48,3٪.

ونلج بهذا السلوك عالما تسوده الإباحية، بل الفوضى الجنسية. ويبدو الإجهاض تقنية «تقليدية» بالنظر إلى الإمكانيات التي تتيحها عمليات التحول البيولوجي اليوم.

ومن تداعيات هذه الثقافة أن أخذت تتعالى أصوات من أبناء جلدتنا وأرومتنا تدعو إلى الحق في الأكل في الأماكن العمومية نهارا جهارا في رمضان. ذلك أن الأكل حسب هؤلاء «المثقفين الجدد» «حق من حقوق الإنسان»، أما كون المغربي مسلما فهو لا يعني بالضرورة «صيام شهر رمضان» كما يزعمون.

وكلما حل رمضان تتعالى الأصوات التي تدعو إلى «عصرنة» الشريعة الإسلامية، وإلى «تحديثها» بدعوى ضرورة مسايرتها لمتطلبات العصر.

وكلما حل رمضان ينطلق هؤلاء «المثقفون الجدد» في التنبيه على انخفاض «وتيرة» العمل والإنتاج. والسبب - حسب زعمهم - هو الإرهاق الذي يصيب بدن الصائم، وكذلك التعب النفسي الذي يصيبه «طيلة يوم كامل من الصوم».

ويمكن إدراج مسألة «الحمية» الغذائية بمعناها الصارم ضمن هذه الثقافة الجديدة المرتبطة بالجسد عموما. فقد لاحظنا، في الآونة الأخيرة، صراعا محموما بين مجموعة من عارضات الأزياء الحسناوات (سمراوات وشقراوات) من أجل الاحتفاظ برشاقة أجسادهن إلى الحد الذي يجعل مفهوم «الرشاقة» يتحول إلى نحافة واضحة، وكأن أولئك العارضات يعانين من سوء تغذية مزمن.

وينعكس هذا الحرص على «النحافة» سلبا على المراهقات اللائي يعتبرن عارضات الأزياء نموذجا «مثاليا» يسعين بشتى الوسائل الى الاقتداء به.

ولعل هذا التأثير السلبي هو الذي أوجد في الساحة الأوروبية اليوم نقاشا صاخبا حول المعايير التي ينبغي توفرها في الفتيات المراهقات، الحالمات بالولوج إلى عالم «المودة»، والشهرة، والأنوار، والأضواء، والمجد... مع ما يعنيه ذلك من حرص على «الرشاقة» قد تصل إلى حد الظهور ببنية جسدية متردية جدا، ومع ما يعنيه ذلك العالم أيضا من رقص، وسهر، ومخدرات، وفساد أخلاقي، وتفسخ جنسي لا يمكن تصوره.

ومما يثير الانتباه ظهور جماعات تدافع عن «النحافة» المفرطة لدى عارضات الأزياء (ربما في مرحلة أولى)، بل تدعو إلى ما تسميه «جمالية العظام». وتتجلى هذه الجمالية مثلا في «مؤشر الطاقة الجسدية»، أو IMC، أي Indice de masse corporelle الذي لا يتعدى رقم 18: أي وزن 55 كيلو غرام لقامة لا تتعدى 1.75 متر.

فنحن أمام شكل ثقافي جديد يعتبر الجسد ملكا لصاحبه، ويجوز التصرف فيه بالشكل الذي يراه مناسبا له، وإن كان ذلك التصرف يحمل عواقب خطيرة على صحة الإنسان. ولعل حالات «الإضراب عن الطعام» تدخل ضمن هذا التصور عموما، وإن كان ذلك الإضراب عبارة عن صيغة يائسة للاحتجاج.

وهكذا تتجلى الأبعاد الثقافية التي يحملها التصور الفكري الغربي الجديد حول الجسد. ونلاحظ أن هذا التصور تجاوز بزمن كبير تلك العقلية الرجولية التي تصر على ربط ثقافة الجسد بالرقص، وإظهار المفاتن في النوادي الخاصة والملاهي الليلية، في منظر تتحرك فيه الغرائز الحيوانية عند الرجل الذي يتحول إلى «فحل» يبحث عن «فريسة» يشبع فيها نزواته، وربما شذوذه.

فالجسد - حسب هذا التصور الجديد - يرتبط بتصور ثقافي هو عبارة عن جملة من المطالب المرتبطة بالانتماء والهوية وتأكيد الذات، داخل مجتمع تحول إلى مجموعة من الكيانات المستقلة، أي إلى مجموعة من الأقليات.

٢-٥-٢ حقوق الأقليات.

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن ضرورة تمتيع الأقليات العرقية والثقافية بحقوقها الوطنية كاملة، ما دامت المواطنة تنطلق من قاعدة تساوي الأفراد وتكافؤ الفرص.

وهكذا انطلقت كثير من الجمعيات في الغرب وفي كثير من البلدان العربية للمطالبة بالحق في الاختلاف، وضرورة الاعتراف بهذا الاختلاف بشكل دستوري وقانوني.

وإذا كانت الأقليات عرفت تهميشا بل اضطهادا من الناحية

التاريخية في كثير من البلدان الاستعمارية خصوصا، فإن التطور الهائل الذي حصل اليوم في الغرب دفع كثيرا من المثقفين إلى الدفاع عن مجموعات بشرية تدافع عن خصوصيات ثقافية تعتقد أنها تمثل إرثا مشتركا لها، ينبغي الحفاظ عليه، ويجب العمل على استمراره، حاضرا ومستقبلا.

ومن بين الأقليات الفاعلة اليوم تلك التي تدعو إلى الدفاع عن لغات محلية أو محليات، أو تنطلق من فكرة الانتماء إلى «عرق» بشري معين. الشيء الذي يضعنا أمام اعتبارات واختيارات «عنصرية»، أو تنطلق من لون مشترك، أو من رغبة مشتركة، مثل «الشواذ» الجنسيين الذين تحولوا في قاموس «حقوق الأقليات» إلى «مثليين جنسيين»، أو إلى مواطنين لهم «ميولات» أو «رغبات» جنسية خاصة. ويستوي في هذه «المثلية» الذكور والإناث.

ونتج عن هذه الدعوات إحداث كثير من وسائل الإعلام من جرائد، ومجلات، وقنوات إذاعية، وتلفزيونية، وفضائية، ومواقع إلكترونية... للتعريف بهذه الأقلية أو تلك، وكذلك للدعوة إلى الانخراط فيها، والمساهمة في نجاح مشاريعها التي تسعى إلى الدفاع عن حق إنساني بسيط، حسب زعم أصحابها، وهو «الحق في الحياة».

غير أن ما يثير الانتباه حول هذه القضية أن الغرب نفسه، ما دام يصر على اعتبار دين الدولة هو العلمانية، يرفض للإنسان حقه في التدين، وما الملاحقات التي يتعرض لها كثير من الشباب المسلم في أوروبا بتهمة «الإرهاب» إلا وجه من أوجه المنع التي تحرم المواطن من أداء شعائره الدينية بكل حرية وهدوء واطمئنان. ولعل تلك المضايقات هي التي تدفع بكثير من الشباب المسلم إلى «الغضب»، والتعبير بعنف قد يصل درجة «الاعتداء» على الغير وعلى ممتلكاته.

إن الحديث عن الأقليات الثقافية يقتضي توسيع الاهتمام بمطالب أصحابها دونما أدنى تمييز أو تحيز. ولكن الشرط الأخلاقي ينبغي

أن يكون هو الضابط الأساسي لدى كل فئة اجتماعية أو ثقافية.

٢-٥-٣ أشكال جديدة داخل النظام الاجتماعي الغربي.. الأسرة نموذجا.

انهارت أشكال تنظيم الأسرة في الغرب بشكل يبعث على القلق تجاه مستقبل النسل البشري في تلك الربوع. فإذا كانت علاقة الرجل بالمرأة من الناحية الشرعية والطبيعية تقوم على المودة والرحمة وتكوين أسرة، فإن الغرب يتجه اليوم إلى تأسيس كيان أسري جديد، تتحدد معالمه الأساسية في «الفوضى الجنسية» التي سبقت الإشارة إليها.

وتتمثل هذه «الفوضى الجنسية» في حق الفرد/ المواطن الأوروبي في اختيار شكل الاقتران والزواج، انطلاقا من «ميولاته الجنسية الخاصة»؛ وهكذا يحق للمرأة أن تقترن بالمرأة، ويمكن للرجل أن يتزوج الرجل، بل يمكن لأحدهما أن يرتبط بالحيوان.

والنتيجة أن نواة الأسرة لم تعد بالضرورة مقترنة بعلاقة طبيعية بين ذكر وأنثى لغرض الإنجاب (وتعمير الأرض)، بل انهارت هذه النواة بشكل لافت للنظر. فالأسرة الجديدة أصبحت «مثلية»: فالزوج فيها ذكر والزوجة ذكر، أو الزوج أنثى والزوجة أنثى، أي أننا أصبحنا أمام أشكال هي عبارة عن أزواج متطابقة كليا. والنتيجة أن أساس تكوين الزواج يكون من أجل تلبية رغبة جنسية شاذة، وينعدم فيها الإحساس بالواجب أو المسئولية؛ وهو ما يجعلنا أمام صنف بشري يعيش حالة من «اللاجدوى» من وجوده. وهذا يعني ظهور حالات من اليأس والإحباط، تعطي فرصا أوفر لإمكانية الانتحار.

وقد اعترفت كثير من البلدان الأوروبية بحقوق «المثليين» / «الشاذين» من الناحيتين المدنية والاجتماعية، من تعويضات، ورعاية صحية، وتأمين، وتخفيضات على النقل، وخصم في الضرائب، وحق

في الإرث واقتسام الثروات.

وإذا تتبعنا مسار هذه الحقوق في فرنسا مثلا نجد تطورا ملموسا حصل لفئة المثليين من مرحلة إلى أخرى، نتيجة لضغط كبير مارسته الجمعيات المدافعة عن تلك الفئة.

ففي 04 غشت 1982، تم إسقاط المتابعة القضائية في حق ممارسي الشذوذ الجنسي، أي أنه لم يعد مخالفا للأعراف والقوانين المعمول بها في فرنسا آنئذ.

وفي 17 مايو 1990، سحبت منظمة الصحة العالمية الشذوذ من لائحة الأمراض العصبية.

وفي 17 سبتمبر 1999، أقرت فرنسا نظاما اجتماعيا، يسمى PACS أي «ميثاق التضامن الاجتماعي» الذي يعترف بالحقوق المدنية والاجتماعية للشواذ.

وفي 15 يونيو 2000، تم السماح للجمعيات المدافعة عن الشواذ في أن تكون طرفا مدنيا في كل قضية يكون الضحية فيها شخص تعرض للاضطهاد بسبب «ميولاته الجنسية الشاذة».

وفي 27 يونيو 2001، أعطت العدالة الفرنسية حق التبني لطفل من طرف «الأنثى» المرافقة لأمه «البيولوجية».

(ولعل نعت الأم بهذه الصيغة البيولوجية يزيل عنها كل صفات الأمومة، وما تحمل الكلمة من معاني العطف والحنان والتربية والرعاية والحب وجميع الصفات الإنسانية النبيلة).

وفي 18 مارس 2003، تم اعتبار الجرائم المرتبطة بالشذوذ الجنسي جرائم عنصرية.

وفي 05 يونيو 2004، تم عقد أول زواج مثلي بصفة رسمية جنوب فرنسا وسط ضجة إعلامية كبيرة.

وفي 03 ديسمبر 2004، تم اعتبار أي سب أو قذف ضد الشذوذ الجنسي بمثابة أفعال مشينة، تدخل ضمن الأعمال «المعادية للسامية». ويبقى الربط بين حادث يكتسي صبغة اجتماعية وآخر يحمل صبغة إنسانية شاملة مسألة تعتمد معايير يصعب الإقرار بها من الناحية التاريخية، والنفسية. ذلك أن «معاداة السامية» تحيل على مجموعة بشرية لها ظروفها الخاصة، ولها ثقافتها الإنسانية التي تمثل اليوم شكلا من أشكال المعاناة الإنسانية عند كثير من الفلسفات والمذاهب في الغرب اليوم. ولعل هذا الجمع بين المسألتين لا يرضي أولئك المعنيين بقضية «معاداة السامية»، ونقصد بهم اليهود، لما يمثله هذا الجمع من تجنٍ على فترة مؤلمة في تاريخ أوروبا الحديث.

وفي 24 فبراير 2006، اعترفت محكمة النقض في فرنسا بحق الأسرة المثلية في أن تكون لها سلطات أبوية، على غرار ما هو حاصل في الأسرة «التقليدية».

وإذا عدنا إلى الأرقام الرسمية حول عدد الزواج المثلي في فرنسا نجد:

6139 تصريحا سنة 1999، و22108 تصريحات سنة 2000، و19410 تصريحات سنة 2001، و24979 تصريحا سنة 2002.

و31161 تصريحا سنة 2003، و39576 تصريحا سنة 2004، و53837 تصريحا سنة 2005.

وكانت كثير من البلدان الأوروبية اعترفت منذ مدة بعيدة بالزواج المثلي وبالحقوق المدنية المترتبة عنه.

الدانمارك سنة 1989، والنرويج سنة 1993، والسويد سنة

1994، أيسلندا سنة 1996، وهولندا سنة 2000، وألمانيا سنة 2001، وفنلندا سنة 2001، وبلجيكا سنة 2003، وكرواتيا سنة 2003، وبريطانيا سنة 2004. وسويسرا سنة 2005، وإسبانيا سنة 2005.

أما بولونيا وهنغاريا وإيطاليا فلن تتأخر في الاعتراف بتلك الحقوق على غرار البلدان الأوروبية الأخرى.

ومن بين أشكال التعبير الجديدة عن الانتماء داخل المجتمعات الأوروبية اليوم حق التبني بالنسبة للشواذ. وهكذا بعد أن طالب هؤلاء بحقهم الدستوري في ممارسة ميولاتهم الجنسية المنحرفة انتقلوا إلى مرحلة خطيرة، سوف يكون لها تأثير كبير على التوازن داخل الأسرة والمجتمع. فها هم اليوم يضغطون من أجل أن تكون لهم كامل الحقوق في تكوين أسرة عن طريق التبني. ولكن ألا يحق للطفل أن يرفض العيش داخل بيت يكون طرفاه مثليين؟ ومن يستشير ذلك الطفل قبل القذف به في جحيم علاقات إنسانية جديدة، تبدو ملامحها خطيرة جدا من الناحية الاجتماعية والنفسية والإنسانية على النسل البشري فوق هذه الأرض، ثم ألا نخشى على الصحة النفسية والعصبية والعاطفية والوجودية لهذا الطفل داخل نواة جديدة تنهار معها جملة من المقولات والمبادئ والمفاهيم؟

ويصاحب هذا الحديث عن «الأسرة الجديدة» حديثٌ عن «المسألة النسوية» في إطار انتفاضة نسوية ضد بعض الاستعمالات اللغوية اللاتينية التي تميز ما بين صفة «الآنسة» وصفة «السيدة»، وما نتج عنه من «تداعيات» على بطاقات الصفة الشخصية، أي على طبيعة الحالة المدنية لهذا الصنف الجديد من النساء في الغرب.

ولقد بدأنا نسمع مؤخرا جدلا حول الجدوى من الحديث عن المرأة حينما تكون عازبة، وحينما تصبح متزوجة. هذه الازدواجية لا نجدها في حالة الرجل الذي يظل دائما «سيدا» سواء كان عازبا أو متزوجا

أو مطلقا أو أرْمَلَ.

والحديث عن الآنسة Mademoiselle أو السيدة Madame يعني في اعتقاد كثير من الناشطات النسوية أن النعت ينطبق على المرأة حينما تكون بكرا (في الكلمة الأولى) أو حينما تكون متزوجة (في الكلمة الثانية). وهذا يعني - حسب هؤلاء - تدخلا في تفاصيل الحياة الشخصية للمرأة، وتقييدا لها من الناحية القانونية/ الإدارية ما دامت بطاقة التعريف الوطنية تحمل إما الصفة الأولى أو الصفة الثانية، وذلك بالنظر إلى الحالة العائلية الشخصية للمرأة.

ويندرج مثل هذا الحديث ضمن سياق ثقافي يسعى من خلاله المدافعون عن الأقليات إلى مساواة المرأة بالرجل، وذلك في إطار الدعوة إلى الحرية المطلقة التي ينبغي أن يتمتع بها الفرد في الغرب اليوم. هذا الفرد ينبغي أن يتميز انطلاقا من صفته الجنسية البيولوجية، فهو إما ذكر أو أنثى، أي أنه يتحول تدريجيا إلى «كيان» مستقل بذاته داخل المجتمع الذي يصبح هو أيضا عبارة عن «محيط» يضم انتماءات مختلفة من الناحية الثقافية والاجتماعية. والنتيجة هي غياب أي شكل من أشكال العلاقات الإنسانية العامة، وغياب قيم المواطنة، والتكافل، والتعاون، والتزاور، وعيادة المريض، ومساعدة المحتاج، وإكرام الضيف، واستقبال الغريب، والإحسان إلى الجار، بل يغيب التواصل اللغوي بين مكونات المجتمع. وحين ينعدم الحوار تسود الأنانية، وحب الذات، وعدم الثقة في الغير.

وفي إنجلترا يبدو أن تسمية الآنسة Miss أو السيدة Mrs في طريقهما إلى الانقراض. فقد ابتكرت اللغة الإنجليزية صفة جديدة تعبر عن «حياد» لغوي، وهي Ms وتنطق «Miz» التي تعني امرأة فقط، ولا يهم إطلاقا إن كانت آنسة أو متزوجة.

وحين نتصفح الموقع الإلكتروني لشركة السكك الحديدية الأوروبية

(1) - Le Monde. N. 19047. 62 eme Année. Vendredi 27 avril 2006.

Eurostar نجدها تضع رهن إشارة زبائنها المسافرين الذين يرغبون في حجز التذاكر خانة يتم فيها الاختيار بين الحالات العائلية الثلاثة: Miss أو Mrs أو Ms[1].

يبدو أن المسألة اللغوية التي تقوم على التمييز بين المذكر والمؤنث تجاوزت الإطار التقني، أي العلامة الصرفية الدالة على جنس الكلمة، إلى الإطار الثقافي الذي ينطلق من مسألة التفريق بين كيانيْن في طريقهما إلى الانفصال. وهما «فصيلة» الذكور بالمعنى البيولوجي للكلمة، و«فصيلة» الإناث بالمعنى نفسه. فنحن أمام صورة للمجتمع الغربي مستقلا تتراكب فيه مكوناته البشرية والثقافية بشكل عمودي، أي بطريقة تنعدم فيها مظاهر التلاحم والانسجام والتعارف والتراحم والتعاون والتكافل، وتطغى فيه الأنانية والغرور وحب الذات والاحتراس من الآخر والحذر الشديد لدرجة تقترب من الحساسية، الشيء الذي يعيدنا إلى فكرة «شريعة الغاب». ولا عجب في المسألة ما دامت العلاقات الإنسانية تشبه في كثير من مظاهرها، من الناحية الأخلاقية، الممارسات الحيوانية الغريزية البهيمية.

٢-٥-٤ معركة المصطلحات اللغوية

أوجدت أنماط العيش الجديدة في الغرب أشكالا مختلفة في العادات والممارسات والسلوك على المستويَيْن الثقافي والاجتماعي. كما أوجدت تعابير لغوية جديدة للتعبير عن الانتقال من طور إلى طور، وليس في الأمر غرابة ما دامت اللغة الإنسانية تصاحب الإنسان في عمليات التحول التي تطرأ على حياته الفردية والاجتماعية.

وهكذا نجد الباحث الاقتصادي الفرنسي Pierre Yves Geoffard (2006)[1] يقترح «تسوية» قانونية لسوق الدعارة في أوروبا، وذلك من خلال الاعتراف بالمومسات بصفتهن «عاملات»

(1) - In Marianne. N. 466, p. 46. Du 25 au 31 mars 2006.

في ميدان الجنس، أي أنهن يساهمن في النشاط الاقتصادي للدول الأوروبية. كما يقترح أن يتم السماح بإقامة «نشاط تجاري» بين شابيْن بالغيْن لهما الحق في ممارسة «عملهما» شريطة موافقتهما التامة. ومن شأن هذه المصطلحات «الجديدة» أن تزيل كثيرا من الحرج عن بائعات الهوى مثلا، ما دمن أصبحن يزاولن مهنة مثل باقي المهن الحرة الأخرى! وبالتالي يبقى من حقهن المساهمة في صندوق التقاعد، والحصول على تعويضات اجتماعية، والتمتع بالتغطية الصحية، والاستفادة من المعاشات، والتوفر على بطاقات مهنية قانونية.

وعلى صعيد آخر، نجد كثيرا من وسائل الإعلام الغربية تصف بعض المسلمين الذين «تنصروا» في أوروبا بأنهم تحولوا إلى «مربين» وإلى «مستشارين» في كل ما له صلة بالعنف الذي تعرفه كثير من ضواحي المدن الأوروبية. فهويتهم المسيحية الجديدة جعلت من أولئك المسلمين الذين ارتدوا عن الإسلام فاعلين أساسيين داخل المجتمعات الغربية. وينتج عن هذا تركيز الإعلام الغربي على هذه النماذج «الناجحة» لفكرة الاندماج التي تسعى كثير من البلدان الأوروبية إلى فرضها على المهاجرين المستقرين فيها. ونلاحظ أن صفتيْ التربية والاستشارة اللتيْن تلازمان المتنصر الذي تنكر لدينه الإسلامي وارتد عنه تحيلان على الوضعية الجديدة التي أصبح عليها ذلك المتنصر. فأخلاقه الجديدة تسمح له بأن يكون مربيا، أي قدوة لغيره، كما تجعله حكيما يمكن استشارته والرجوع إليه.

وسمعنا مؤخرا عن طلب تقدمت به دول الاتحاد الأوروبي إلى بعض اللسانيين المغاربة من أجل وضع قائمة مفصلة بالمصطلحات التي تثير غضب المسلمين. ومن بين تلك المصطلحات التي تمت الإشارة إليها: الإرهاب، والفاشية، والجهاد، والحرب المقدسة، والرادكالية

---

(1) - m: jeune Afrique/ L'intelligent. 46^{éme} année. N° 2353. Du 12 au 18 Fevrier 2006.

الإسلامية.

وخلال كأس العالم الأخيرة لكرة القدم التي جرت في ألمانيا في صيف 2006 قامت شبكات الدعارة بتوفير ما لا يقل عن 40000 (أربعين ألفا) من المومسات من «أجل الترفيه عن المشجعين الرياضيين». غير أن أكبر فضيحة عرفتها برلين هي تلك التي ارتبطت ببناء أضخم ماخور على مساحة تتعدى 3000 متر مربع، ويضم متجرا ممتازا تتوفر فيه جميع لوازم الممارسة الجنسية، وذلك غير بعيد عن الملعب الأولمبي.

وعلينا أن لا نستغرب لخبر من هذا القبيل ما دامت ألمانيا رخصت للدعارة بصفة قانونية منذ سنة 2002. بل إن وزارة التعاون الألمانية أصدرت كتيبا أسمته «دليل سفر للنساء»، وهو موجه بصفة خاصة إلى الفتيات القادمات من أوكرانيا تحديدا اللائي يرغبن في «العمل» خلال مونديال 2006. ويطلق الدليل على عمل المومسات في ألمانيا «مضيفات استقبال».

وعلى إثر أحداث 11 سبتمبر 2001، ونتيجة لموجة الكراهية التي اجتاحت العالم الغربي لكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين عموما، لجأ كثير من الشبان العرب الذين يحملون جنسيات البلدان الأوروبية إلى تغيير أسمائهم الشخصية؛ وذلك أملا في إخفاء أصولهم العربية – الإسلامية. وهكذا تحول لقب محمد إلى: Momo، Moha، Mominette، Sam، Gregory

ويحكي الروائي المغربي الأصل فؤاد العروي (2006) [1] كيف أن سكرتيرة في الجامعة التي كان يشتغل فيها في بريطانيا كانت تصر على أن تناديه باسم Fred بدل Fouad، ويعترف أنه كان يقبل هذا اللقب الجديد دون أدنى اعتراض منه.

يبدو أن معركة المصطلحات والتسميات والألقاب والمفاهيم اللغوية لا تقل ضراوة عن المعارك الفكرية والثقافية الأخرى التي تتحكم

في الصراع الدائر بين الغرب والشرق؛ فهذا الصراع تغذيه كثير من الأحداث اليومية البسيطة التي يمكن أن تترك أثرا كبيرا في النفوس، كما يمكن أن تحدث مزيدا من الفجوة والنفور بين المسلمين وأهل الغرب.

ذكرنا النماذج أعلاه للدلالة على أن الغرب تتجاذبه اليوم كثير من النزعات والرغبات والميولات والأذواق التي تعبر عن تحول كبير طرأ على مستوى السلوك، وأنماط التفكير والعيش في الغرب. وغير خاف التأثير الذي يحدثه مثل هذا التحول في علاقة الغرب بكثير من القضايا التي سوف نعرض لها بعد قليل. ومن شأن هذا التجاذب بين ما هو مطروح من قضايا تخص الغرب مباشرة، وبين قضايا أخرى تربطه بالآخر أن يجعل عملية الفصل صعبة التحقيق، ما دامت العقلية الغربية هي التي تتحكم في تصريف الأمور، وتحليلها، والتحكم فيها، والحكم عليها.

وكان لزاما معرفة بعض من القضايا الثقافية العديدة التي يناقشها أبناء الغرب فيما بينهم، لما لها من تأثير مباشر على مجمل القضايا الإنسانية التي يمكنه أن يخوض فيها. وتزداد الأمور تعقيدا بالنظر إلى تلك العقلية الغربية التي تجعل من الغرب كيانا ثقافيا مستقلا من الناحية الفكرية، بل تضعه في مكانة متفردة ومتميزة عن عقلية الآخر. وتبدو المسافة قصيرة بين هذا التفرد وهذا التميز وبين التفوق والاستعلاء والغرور والكبرياء، وبالتالي التعامل بكثير من العجرفة والاحتقار، وقليل من الحكمة والاعتبار للقضايا الفكرية المرتبطة بالآخر. هذا الآخر عليه أن يستهلك الأفكار مثلما يستهلك البضائع والسلع. هذا الآخر الذي يمكن أن يفرض عليه الغرب وصاية، نظرا لعدم نضجه، ونظرا لفترة المراهقة الفكرية التي يعيش فيها، وبالتالي فالوصاية حماية له. وهكذا يصبح الاستعمار ضرورة لإخراج الآخر من المرحلة البدائية التي يعيش فيها. وتتحول هذه الضرورة إلى

(1) انظر الفقرة: 3-4 من هذا الفصل.

واجب بالمعنى الديني للكلمة، ذلك أن التبشير بالديانة المسيحية هو تصدير للكلمة الطيبة إلى شعوب ما زالت تحيا مرحلة همجية، بل يصبح هذا التنصير ضروريا من أجل حماية الغرب نفسه من وحشية الآخر. وبما أن الوقاية خير من العلاج، فالاستعمار، وما يرتبط به من تبشير وتنصير، هو إجراء وقائي يسعى من خلاله الغرب إلى حماية نفسه من المرحلة البدائية التي يعيش فيها الآخر. وما دام الغرب يعتبر نفسه مركز الكون فكل ما يحيط به هامش، أي غير ذي قيمة، ولا جدوى من وجوده. فوجوده مثل عدمه.

٣- المسألة الدينية في الغرب.

نهدف من خلال إثارة قضية التدين في الغرب إلى لفت الانتباه إلى حضور الإيمان الديني لدى فئة عريضة من المواطنين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عموما.

وحين نتحدث عن الدين في الغرب، فإننا نقصد ممارسة الديانة المسيحية (كاثوليكية كانت أو بروتستانتية أو إنجيلية أو أرثودوكسية أو إصلاحية أو تجديدية...) من طرف الغربيين أنفسهم. أما حضور الإسلام في تلك الربوع فسوف يأتي الحديث عنه لاحقا [1].

وحينما تثار قضية التدين في الغرب تبدو المسألة ظاهريا متعارضة مع مبدأ مقدس تبنته المجتمعات الأوروبية في الغالب الأعم، ونقصد «العلمانية».

وتقوم العلمانية على ضرورة الفصل بين السلطات الدينية التي تتولى تدبيرها الكنيسة، وبين السلطات المدنية التي يسهر على تسييرها جمعيات وهيئات وفعاليات مدنية وسياسية وثقافية منتخبة، أو متطوعة لهذا العمل.

ويعود هذا الفصل - كما سبقت الإشارة إلى ذلك سلفا - إلى العلاقة المتوترة التي طبعت تطور المجتمعات الأوروبية منذ القرن الثامن عشر، تلك العلاقة التي ميزها صراع محموم بين رجال الكنيسة وبين بعض المثقفين المبشرين بعصر الأنوار.

لقد كان آباء الكنيسة يفرضون وصاية على إيمان الفرد في الغرب من خلال ممارسات تذكر بالعصور الإقطاعية. فالمؤمن العاصي «يعترف» بآثامه أمام «رجل» يمثل الكنيسة، وهو الذي يوزع «صكوك الغفران» على المؤمن الطائع التائب، وهو الواسطة بين هذا المؤمن وخالقه، وهو الذي يفرض على المؤمن أنماط العيش والتفكير في شئون الكون ما دام يتحدث باسم «الإله»، وهو الذي يراقب حركات المؤمن وسكناته، ويتابع كل صغيرة وكبيرة تصدر منه، ويحسبها عليه أو ضده. وهو الذي لا يتوانى عن إلصاق تهمة الكفر والزندقة والردة والهرطقة على أي تفكير لا يساير ما تقول به الكنيسة وتدافع عنه.

فحينما يتساءل عقل بشري عن إمكانية «كروية» الأرض يقوم رجال الكنيسة بتوجيه اتهام مباشر بالخطل والحمق والجنون والهوس والمس لتصور من هذا القبيل، ولأي تصور يسعى لفهم مبادئ الديانة المسيحية عموما فهما عقليا.

فالعلمانية في سياقها التاريخي هي نتيجة لصراع محموم بين ممارستيْن متعارضتيْن منذ البداية، وهما ممارسات رجال الكنيسة وممارسات رجال العلم. ولا دخل للدين أي المسيحية في هذا الصراع! بل المعنيون بهذا الصراع هم أولئك الذين كانوا يتحدثون باسم الدين، أي رجال الكنيسة، أي الناطقين الرسميين باسم السلطات الدينية الكنسية. ولعل فكرة الوصاية التي كان ينطلق منها رجال الكنيسة هي التي كانت السبب في احتدام النزاع بين هؤلاء وتلك الطبقة من المثقفين الجدد الذين كانوا يرغبون في فهم تعاليم الديانة المسيحية فهما عقليا جديدا. غير أن الكلام أعلاه لا ينفي وجود أشخاص كانوا

يبدون معارضة شديدة لأي شكل من أشكال التدين، أي أن مذهبهم في الحياة كان مذهبا ماديا طبيعيا محضا.

والنتيجة أن العلمانية في سياقها التاريخي على الأقل لا تعني فصل الدين عن الدولة بمعنى القطيعة التامة بينهما، بل كانت تعني التمييز بين تصرفات من يتحدثون باسم الكنيسة، وأولئك الذين عارضوا تلك التصرفات. فحين تعارض الكنيسة التفكير الفلسفي والعلمي يتكون انطباع بأن الديانة المسيحية هي التي تناهض مثل هذا التفكير. وحينما ننقل «الاتهام» من رجال الكنيسة إلى الكنيسة نفسها ننتقل إلى الديانة المسيحية برمتها، ومنها إلى «الدين» عموما!!.

وهكذا تبدو المسافات قصيرة جدا بين حكم نسبي يخص رجال الكنيسة، وبين حكم عام يراد له أن ينسحب على أي دين، سواء كان سماويا أو وضعيا.

ولعل هذا السياق التاريخي يجعلنا ندرك أهمية الممارسة الدينية في الغرب عموما، ونعي في الوقت نفسه طبيعة الصراع القائم هناك بين الدين والعلم، أي بتعبير أدق بين المتدين والعالم. هذا التقابل لا يمكن أن ينسحب بأي حال على وضعيات اجتماعية وتاريخية وثقافية لا صلة لها بالتفكير داخل إطار الكنيسة البابوية. إن تعميما من هذا النوع هو اختزال مشين للتاريخ عموما ولجميع الممارسات البشرية الفكرية. ونحن ندرك جيدا أن تحليل ظاهرة ثقافية معينة يتطلب منا إدراج تلك الظاهرة ضمن سياقها العام من الناحية الفكرية والثقافية والاجتماعية والنفسية. فإذا كانت الأمور تجري على هذا الشكل فكيف يجوز لنا القفز على كثير من المعطيات المتصلة بالنزاع الدائر بين رجال الكنيسة وبين فئة من المثقفين، واللجوء إلى تلك الطريقة

(1) - Jean-Francois Colossimo: 2006.
Dieu est Américain.
De la théodémocratie aux Etats-Unis.
Edition Fayard. Paris. 324 pages.

التي تختزل المحطات والمسافات التاريخية، وكأن السياق العام الذي وقعت فيه تلك الأحداث ليس إلا إطارا عاما، ينبغي النظر إليه بشكل فاتر ومحايد.

٣-١ الديانة الأمريكية

يذكر الباحث الفرنسي Jean-Francois Colossimo (2006)[1] ، الذي اشتهر بدراساته العديدة حول المجتمع الأمريكي، أن السياسة الأمريكية الحالية تنطلق من فكرة ضرورة القيام بحرب صليبية عالمية جديدة، يكون لواءها الإنجيل، والعدو فيها هو القرآن. وتأتي هذه الحرب الدينية بعدما انتهت الحرب الباردة، وبعدما دخلت الشيوعية متحف الآثار التاريخية.

ويصبح الدين مسألة وطنية، ويدخل مجالات عمومية عديدة، دون أن يثير ذلك أدنى إشكال لدى المواطن الأمريكي العادي.

ويعود هذا التصور المرتبط بعالمية الإنجيل ووطنيته وعموميته، في الآن نفسه إلى الرئيس الأمريكي الثامن والعشرين في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية Thomas Woodrow Wilson (1856-1924) الذي تبنى سياسة عالمية تقوم على تصدير النموذج الأمريكي إلى الجنس البشري قاطبة، لأنه «نموذج إلهي».

وكان ويلسون يعتقد جازما أن الله هو الذي أنشأ أمريكا، وأنه اختار الأمريكيين لكي يوضحوا الطريق أمام شعوب العالم التي تقود إلى الحرية. وانطلاقا من هذا التصور يتحول الأمريكيون إلى «شعب

---

(1) تحمل فكرة «شعب الله المختار» معاني عديدة تتجاوز التصور الديني اليهودي. وقد سبق لنا أن ناقشنا هذه الفكرة بمداخلة بعنوان:
«مسئولية الإنسان في التوراة وفكرة شعب الله المختار» خلال ندوة دولية بعنوان «الإنسان في الكتب السماوية». المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، جامعة وهران (الجزائر): من 23 إلى 25 نوفمبر 1997.

(2) - In: Marianne. N. 482, pp. 36-37. Du 15 au 21 juillet 2006.

الله المختار»[1].

وحين وقع الاختيار على هؤلاء الأمريكيين فهذا يعني أنهم، ومعهم الجنس البشري، من «جوهر إلهي». ولعل هذا التصور هو الذي جعل كثيرا من الولايات الأمريكية حاليا ترفض إطلاقا تدريس نظرية داروين في المدارس الابتدائية والثانوية، وتفضل أن تلقنهم نظرية اشتهرت في أمريكا منذ القرن الثامن عشر، وهي نظرية Intelligent Design التي ترفض ربط الإنسان بالقرد في عملية النشوء والخلق، بل تقر بأن البنيات البيولوجية لدى هذا الإنسان بلغت درجة من التركيب والتعقيد لا يمكن أن يكون وراءها إلا «مبدع ذكي»، وهذا «المبدع» لا يمكن أن يكون إلا الله الخالق.

ولعل فكرة عالمية الإنجيل التي تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية منذ مدة بعيدة هي التي دفعت الملياردير الأمريكي Tom Monaghan[1] إلى الشروع في بناء مدينة أطلق عليها اسم «المدينة الكاثوليكية» Catholic City، وهي أول مدينة «يصممها ويبنيها ويسكنها كاثوليكيون، ويمتد إشعاعها الديني إلى العالم قاطبة».

وتقع المدينة الجديدة حوالي 20 كيلو مترا شمال ميامي في ولاية فلوريدا. وسوف يميزها صليب علوه 22 مترا، وهو الأكبر في الولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يقطنها عشرون ألف نسمة، أي عشرين ألف مؤمن.

لقد اكتسح التدين في أمريكا مجالات عمومية عديدة لدرجة تصبح المرجعية الكاثوليكية والإنجيلية مهيمنة على كثير من مناحي الحياة هناك.

وكرست الإدارة السياسية الأمريكية الحالية هذا الوضع؛ إذ أصبح تحركها يسير على إيقاع تصورات المحافظين الدينيين الجدد؛ وهو ما

---

(1) عبدالكريم بوفرة: حرب القيم... ص. 150 وما بعدها 2003.

يجعلنا أمام «ديمقراطية دينية»، أي ما يسمى Theodemocracy. ويكفي هذا المصطلح الأمريكي للدلالة على عدم تعارض الدين مع الديمقراطية، وعلى إمكانية ممارسة العمل السياسي مثلا في إطار من الإيمان الديني، دون أن يثير ذلك علامات الاستغراب أو الاستهجان!.

ومما يزيد من مكانة الدين داخل المجتمع الأمريكي الدور الكبير الذي تقوم به جمعيات مدنية دينية من الناحية الاجتماعية، من دعم ومساعدة للمحتاجين بشكل لا يبدو معه تعارض بين العمل التطوعي مثلا والتحرك باسم الكنيسة.

وهكذا تحول الدين إلى قضية وطنية وعمومية بشكل يبدو معه إيقاع الحياة مرتبطا بنواقيس الكنيسة وترنيمات الأناجيل.

٣-٢ المسألة الدينية في أوروبا

تختلف الممارسة الدينية في أوروبا كثيرا عن مثيلتها في الولايات المتحدة الأمريكية لاعتبارات تاريخية وثقافية وفكرية أشرنا إلى بعضها في مناسبة سابقة [1].

فطبيعة المجتمع الأمريكي المتصلة أساسا بالهجرة التاريخية إلى العالم الجديد تجعل المسألة الدينية تتميز بكثير من التسامح والانفتاح والتساهل في كثير من الأحيان. أما أوروبا، مركز المسيحية ومقر سلطة البابا، فتبدو هذه القضية كثيرة الحساسية بالنظر إلى وظيفة الكنيسة الكاثوليكية الإنجيلية التبشيرية.

ونود أن نضيف هنا فكرة ترتبط برسوخ فكرة التثليث كما جاءت في أدبيات الكنيسة المسيحية في مجالات علمية عديدة لا صلة لها بالجانب الديني، أي أنها تسربت إلى كثير من المناهج الفكرية والعلمية

---

(1) الأعمال الكاملة. ج. 1/ ص 115 وما بعدها.

(2) - In: Le Monde Diplomatique. 53 eme Année. N. 622, pp. 14-15. Janvier 2006

والفلسفية.

وكان الفيلسوف المغربي الراحل الدكتور المهدي بنعبود على حق حين أشار إلى هذه المسألة [1] في سياق حديثه عن تصنيفات جاءت بتفسير ثلاثي للتاريخ، ويعتبرها من قبيل الظن لا العلم. وهذه التقسيمات الثلاثية تذكرنا بفكرة الثالوث المقدس لدى رجال الكنيسة: الأب/ الابن/ الروح المقدس.

فالمؤرخ Vico انتقل بأطوار التاريخ من مرحلة الآلهة إلى مرحلة الأبطال ثم مرحلة الإنسان.

ويرى فيلسوف النزعة الوضعية Auguste Comte أن التاريخ البشري تطور عبر مراحل ثلاث ابتدأت من المرحلة الخيالية (أو مرحلة الآلهة)، وانتقلت بعدها إلى المرحلة التجريدية (الميتافيزيقية)، لتصل في نهاية المطاف إلى المرحلة العلمية (أو الوضعية).

ولا يبتعد فيلسوف المذهب الجدلي Hegel كثيرا عن هذا التصنيف، إذ يتحدث عن ثلاثة عناصر تشكل أساس فلسفته، وهي الموضوع، ونقيض الموضوع، والمركب.

وحين يتحدث الكاتب البولندي Ryszard Kapuscinski (2006)[2] عن علاقة الإنسان بالآخر فإنه يحصر رد الفعل في ثلاثة مواقف متباينة: الحرب، أو العزلة، أو الحوار.

ويعتقد أن الآخر ينبغي أن يُنظر إليه باعتباره كينونة فريدة، ولا يمكن تقليدها. وتتعارض هذه الفكرة مع فكرتيْن سابقتيْن عليهما ظهرتا في القرن العشرين، وهما هيمنة المجتمع التي تعني إلغاء خصوصيات الفرد، وهيمنة الأيديولوجيات الهدامة والشمولية (مثل النازية والستالينية والشيوعية والصهيونية) التي تقوم على «ضرورة»

---

(1) - N. 697, pp. 44-46. Mars 2005.

دحر الآخر والقضاء عليه، لأنه لا يستحق الوجود أصلا، ولا يستأهل الحياة؛ لأنه لا يمتلك أدنى قيمة وجودية، بل قد يتحول هذا الآخر إلى مجرد فكرة مشوهة عن الإنسان. فالآخر ليس إنسانا بالمعنى الكامل، بل هو مسخ أي شبيه بالحيوان والآدمي في الوقت نفسه، كما نقرأ ذلك في الأساطير اليونانية القديمة.

فيكفي أن يتم «تغييب» الآخر لكي تنسج حوله تصورات تجعل منه تدريجيا شكلا مخلوقا فيه تشويه ثم مسخ، وفي الأخير يصبح شكلا لا هو بالإنسان ولا هو بالحيوان، بل هو تركيب مشين بينهما.

٣-٣ الإيمان في الغرب.

قدمت المجلة الشهرية المعروفة Sélection du Reader's Digest في نسختها الفرنسية (2005) [1] حصيلة دراسة قامت بها كثير من البلدان الأوروبية حول الإيمان وما يتعلق به.

فعن السؤال: هل تؤمن بالله؟ كان الجواب بنعم بنسبة:

97٪ في بولندا، و90٪ في البرتغال، و87٪ في روسيا، و84٪ في النمسا، و80٪ في إسبانيا، و77٪ في سويسرا، و74٪ في فنلندا، و73٪ في هنغاريا، و67٪ في ألمانيا، و64٪ في بريطانيا، و60٪ في فرنسا، و58٪ في بلجيكا، و51٪ في هولندا، و37٪ في التشيك، و71٪ النسبة الأوروبية.

وعن السؤال: هل تؤمن بحياة بعد الموت؟ كان الجواب بنعم بنسبة:

81٪ في بولندا، و67٪ في النمسا، و64٪ في سويسرا، و60٪ في إسبانيا، و58٪ في بريطانيا، و57٪ في البرتغال، و51٪ في فنلندا، و51٪ في روسيا، و45٪ في هولندا، و43٪ في ألمانيا، و43٪ في فرنسا، و43٪ في هنغاريا، و37٪ في بلجيكا، و36٪ في التشيك، و53٪ النسبة

الأوروبية.

وعن السؤال: هل تعتقد أننا بحاجة إلى الدين من أجل التمييز بين الخير والشر؟ كان الجواب بنعم بنسبة:

86٪ في بلجيكا، و78٪ في روسيا، و54٪ في سويسرا، و53٪ في هنغاريا، و44٪ في البرتغال، و44٪ في ألمانيا، و41٪ في النمسا، و37٪ في ألمانيا، و32٪ في فنلندا، و32٪ في بلجيكا، و31٪ في بريطانيا، و27٪ في التشيك، و25٪ في هولندا، و24٪ في فرنسا، و43٪ النسبة الأوروبية.

وعن السؤال هل الديانات الكبرى تعمل من أجل الخير في هذا العالم؟ كان الجواب بنعم بنسبة:

79٪ في البرتغال، و78٪ في بولندا، و72٪ في إسبانيا، و61٪ في النمسا، و53٪ في فنلندا، و52٪ في ألمانيا، و51٪ في النمسا، و50٪ في هنغاريا، و46٪ في بريطانيا، و42٪ في التشيك، و40٪ في فرنسا، و39٪ في بلجيكا، و36٪ في روسيا، و34٪ في هولندا، و52٪ النسبة الأوروبية.

لعل هذه النسب توضح الحضور القوي للدين في الحياة العامة في أوروبا، على الرغم من اعتماد كثير من البلدان الأوروبية النظام اللبرالي العلماني في تصريف شئونها العادية والعامة. فالمواطن الأوروبي يؤمن بالله بنسبة كبيرة تصل إلى 71٪، كما يؤمن بحياة بعد الموت بنسبة تفوق المعدل العام. بل إن هذه النسبة تقترب كثيرا من المتوسط العام في إيمان المواطن الأوروبي بالحاجة إلى الدين باعتباره قيمة تساعدنا في التمييز بين الخير والشر. وتبدو صورة الديانات الكبرى معتبرة بالنظر إلى التطور الحاصل في المجتمعات

---

(1) - Michel Guérin: 2005. La Pitié. Apologie athée de la religion chrétienne. Editions Albin Michel. Paris.

الغربية اليوم.

ولعل مكانة الدين في أوروبا سوف تتضح معالمها أكثر حين الحديث عن الصورة التي يتمتع بها بابا الفاتيكان لدى الرأي العام الأوروبي كما عكسته وسائل الإعلام من خلال تغطيتها لوفاة البابا يوحنا بولس الثاني الذي وافته المنية نهاية شهر مارس 2005.

لقد واكبت وسائل الإعلام الأوروبية مرض البابا واحتضاره ووفاته بشكل متواصل على مدار الساعة واليوم، لدرجة أصبحت متابعة الحالة الصحية للبابا تشبه «التقديس» و«العبادة»، أي La papaulaterie كما نعتها الفيلسوف الفرنسي المشاغب Alain Finkielkraul، وهو يعلق على مراسيم تشييع جنازة البابا يوحنا بولس الثاني.

هذا البابا الذي أطلق حملة أسماها «التبشير الجديد»، وذلك بالاعتماد على جمعيات مسيحية شابة ومدربة، تسمى «جند المسيح».

ويربط الفيلسوف [1] Michel Guérin (2005) تلك التغطية الإعلامية التي صاحبت وفاة بابا الفاتيكان برغبة الديانة المسيحية في أن تكون ديانة عالمية. فبما أن الكنيسة تسعى إلى مخاطبة العالم بأسره، وما دامت تحمل البشارة والكلمة الطيبة إلى البشرية، فإنها (أي الكنيسة) تستغل وسائل الإعلام إلى أقصى الحدود من أجل تمرير خطابها التبشيري الإنجيلي الخَلاصِي. فالاعتقاد بعالمية الديانة المسيحية دفع الفاتيكان إلى الاقتراب ما أمكن من وسائل الإعلام الدولية، بالإضافة إلى الأدوات التي تمتلكها وتراقبها من إعلام مرئي ومسموع ومكتوب، وذلك سعيا منهم للحصول على التغطية الإعلامية لكثير من أنشطة البابا في جولاته المكوكية عبر العالم. لقد كان البابا يوحنا بولس الثاني يدرك جيدا أهمية الإعلام في إيصال خطاباته وعظاته الدينية، وكان يحلو له كثيرا أن يخوض في قضايا سياسية

واجتماعية، مثل الإرهاب والإجهاض ومسألة الشذوذ الجنسي؛ وذلك لكي يمرر خطابا مفاده حضور الكنيسة خارج أماكن العبادة، كما كان يسعى إلى إيلاء بابا الفاتيكان المكانة التي ينبغي أن تعود إليه باعتباره الزعيم الروحي للكاثوليكية عبر العالم، أي الناطق الرسمي باسم الدين الذي يحق له أن يتدخل في كل شيء باسم الدين.

وتحوَّل احتضار البابا يوحنا بولس الثاني إلى مشهد تلفزيوني درامي من الناحية الإعلامية، دفع كثيرا من المتفرجين أي المؤمنين إلى استحضار صورة أخرى، تذكر بمعاناة «يسوع المسيح» و«عذابات المخلص».

يبدو حضور الدين قويا في المشهد الإعلامي الغربي لدرجة يحق لنا أن نتساءل عن طبيعة العلمانية وحدودها داخل المجتمعات الأوروبية، من الناحية العملية على الأقل أي حينما نربط هذه المسألة بممارسات المواطن الأوروبي في حياته اليومية العادية، وذلك حينما نتأمل مليا في الدور الذي يؤديه الفاتيكان على مستوى العلاقات الخارجية وكذلك على مستوى التواصل مع المؤمنين، من خلال رسائل البابا وكتاباته وخطاباته وعظاته ولقاءاته التي تكاد لا تنقطع. فنحن أمام حضور مهيمن لصورة الفاتيكان على الساحة الإعلامية اليوم. هذا كله بالإضافة إلى مسألة التبشير والتنصير التي أصبحت تتخذ أشكالا تصاحب التطور التكنولوجي الحاصل في كثير من بلدان العالم. فالعولمة تعني الثقافة والفكر والاقتصاد... وتعني الدين أيضا.

كان لا بد لنا من هذه «التوطئة» قبل الخوض في مسألة «الإسلام في الغرب»؛ وذلك للتنبيه على جملة من الحقائق، منها:

- إن الحديث عن الإسلام في الغرب ينبغي أن يدخل ضمن سياق عام يرتبط بمكانة الديانة المسيحية داخل المجتمعات الأوروبية، أي أننا نعالج قضية ليست غريبة على المجتمع الذي ترتبط به اليوم.

(1) - Philippe Descola: 2005. Par-dela nature et culture. Editions Gallimard. Paris.

والأدهى أن الغرب يمتلك ديانة ويمارسها بشكل واضح. والنتيجة أن هذا الغرب، من حيث المبدأ، ليس في حاجة إلى التدين وإنما هو في حاجة إلى الدين، ونقصد الدين الذي يتجاوز مقولات المسيحية، ويشفي غليل المؤمنين الفضوليين الذين لا يكلون من طرح السؤال تلو الآخر حول أمور دقيقة جدا قد تكون المسيحية قدمت لها أجوبة ناقصة أو عامة.

- هذا الحضور الكبير للديانة المسيحية في الغرب اليوم ربما يفسر المواقف المؤيدة أو المعادية للإسلام داخل المجتمعات الأوروبية، أي ينبغي ربط تلك المواقف بمدى العلاقة بالديانة المسيحية، من حيث المكانة أو الأولوية التي تحظى بها المسيحية في كثير من مناحي الحياة اليومية في الغرب.

- إن هذه المكانة تقودنا إلى ضرورة إعادة النظر في مسألة العلمانية التي طرحت في عالمنا العربي - الإسلامي بشكل تبسيطي وتسطيحي يقوم على الفصل الموضوعي بين الدين والدنيا! وما مصطلح «الديمقراطية الدينية» الذي تمت الإشارة إليه سلفا إلا تعبير على إمكانية الجمع بين المواطنة والإيمان في انسجام تام ودونما تعارض.

ونتفق كليا مع الفيلسوف Pholippe Descola (2005)[1] حينما أشار إلى أن الفصل ما بين الطبيعة والثقافة ما هو إلا «وهم» لا يستقيم مع الحقيقة الموضوعية للأشياء، كما هي في واقع الحياة. وقد أدى هذا الفصل غير السوي إلى تجزئ كثير من مظاهر الحياة الطبيعية، واعتبارها مجرد «عينات» تصلح لتقديم نتائج عامة. وأخطر ما في هذا الفصل هو ذلك الذي حصل على المستوى اللغوي واللساني كما يشرح ذلك بتفصيل الباحث Alain-Abraham Abehsera (2001)[1] في كتاب جدير بالقراءة والمناقشة العميقة.

(1) - Philippe Descola: 2005. Par-dela nature et culture. Editions Gallimard. Paris.

- إن المواقف من الإسلام في الغرب هي في واقع الأمر مواقف من الديانة المسيحية، عن طريق إعادة الاعتبار إليها، وجعلها ديانة تستطيع التدخل في جميع مناحي الحياة، مثلما هو الشأن في الإسلام الذي يعتبر نفسه دينا ودنيا في الوقت نفسه، دون أن يثير هذا الجمع تعارضا أو تناقضا بين الجانبين الروحي والمادي، ما داما هما المقومين الأساسيين في حياة الإنسان.

- إن موضوع الإسلام في الغرب يكتسي أهميته وحدته وخطورته من المكانة التي يحظى بها الدين عموما في الغرب. فلولا المكانة الخاصة للديانة المسيحية لما كانت المواقف من الإسلام حادة وعنيفة، ولما اتسمت بكثير من الجرأة والتطاول في كثير من الأحيان.

٤ - الإسلام في الغرب

يمثل حضور الإسلام في الغرب في جانبه الإيجابي وجها من أوجه الالتقاء الحضاري التي طبعت مسيرة الدين الحنيف باعتباره الدين الخاتم أولا، ورسالة سماوية ثانيا، وخطابا إلهيا للناس كافة ثالثا.

وبما أن الإسلام جاء حاملا للكلمة الطيبة وجاء لدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة والعقل فإنه لا يكره الناس على الإيمان به، ويعترف للغير بحق عبادة إله آخر غير الله سبحانه وتعالى، شريطة عدم إلحاق الأذى بالمؤمنين، وعدم إثارة الفتنة بين المسلمين، وعدم التطاول على رب العباد.

ويعود حضور الإسلام في الغرب إلى طبيعة الإسلام نفسه؛ فهو دين العلم والحضارة والثقافة والحكمة والفلسفة والوجدان والشعور والروح... وهو دين الإنسان في بعده الإنساني.

فلا نستغرب إذن إقبالا كبيرا من العجم عليه ما دام خطابه لا يستثني أحدا من الكائنات الحية. ولعل الحضور العربي الإسلامي في الأندلس الإسلامية في القرن الخامس الميلادي كان له تأثير كبير على مسيرة الغرب الثقافية؛ ذلك أن النهضة الأوروبية اعتمدت كثيرا

على المصادر الإسلامية في نهضتها الفكرية تلك.

وكان لحملات التبشير والاستشراق والاستعمار دور حاسم في ربط الصلة بالإسلام وأهله، دون أن يعني هذا أن الصراع حول المبادئ والمصالح كان غائبا أو مهملا. فبما أن المسيحية جاءت حاملة للبشارة ولهداية «خراف بني إسرائيل الضالة» فقد اعتقد آباء الكنيسة أن البشارة ينبغي أن تعم الأرض كلها، أيا كانت الوسائل المعتمدة من أجل إيصال ذلك الخطاب التبشيري.

ولعل هذا التصور يمثل الإرهاصات الأولى لفكرة «العولمة». ونعتقد أنه من المفيد جدا لنا البحث في الجذور الدينية لفكرة العولمة، وذلك بربطها مباشرة بإطارها المسيحي التبشيري أولا وقبل كل شيء. إننا نثير الانتباه هنا إلى موضوع جدير بالبحث والدراسة.

واعتقد آباء الكنيسة أن البشارة هي خلاص البشرية، فلا بد إذن من حمل الناس على اتباع تعاليم الديانة المسيحية، ولا بد من إرغامهم على الخضوع لسلطة البابا الذي يمثل «ظل الله في الأرض».

وهكذا انتقلت دعوة المسيحية من الكلمة الطيبة إلى القهر والتسلط وقطع الرقاب. وكان للاستشراق دور كبير في خدمة المؤسسات العسكرية والاستراتيجية، وفي تقديم دراسات عن الإسلام وأهله. ونحن نشير هنا فقط إلى ذلك النوع من الاستشراق الذي تجند لخدمة الإمبراطوريات المسيحية التي سعت إلى دحر المسلمين، لأنهم أصحاب رسالة تنازع المسيحية في مسألة البشارة والكلمة الطيبة، فالريادة يجب أن تبقى للغالب المنتصر. ولهذا الغرض قامت حروب دينية وصليبية. وكان القادة العسكريون الأوروبيون، ومعهم كثير من المستشرقين وآباء الكنيسة، يعتقدون أن العالم غير الخاضع للمسيحية عالم همجي، ومتوحش، وبدائي، وهمجي، وحيواني، وشهواني... يحتاج لمن يخرجه من الكهوف، والمغارات، والظلمات، والغشاوات إلى الأنوار، والأضواء، والزخارف، والصور، والتماثيل.

وكان للتبعية الاقتصادية دور فعال في «تشكيل» صورة «مشوشة» عن الإسلام في الغرب. وبرزت هذه التبعية بعد انتهاء فترة الاستعمار، وظهور الحاجة عند كثير من مواطني دول المغرب العربي مثلا إلى الهجرة إلى فرنسا من أجل العمل وضمان عيش كريم للأهل في البلدان الأصلية التي هاجروا منها.

وما يميز هؤلاء المهاجرين هو وضعهم الاجتماعي المتردي الذي فروا منه، أي إن هؤلاء في الغالب الأعم لم يكونوا يحملون هما فكريا أو ثقافيا أو حضاريا، ولم يراودهم أدنى تفكير في أن انتقالهم إلى أوروبا هو التقاء بثقافة أخرى. ومما فاقم من حالة هؤلاء مستواهم التعليمي الذي يكاد يكون منعدما.

فالمهاجرون الأوائل كان سعيهم رغيف خبز، ولقمة عيش، وكانوا يعتبرون أنفسهم عربا ومسلمين في ديار الغربة، غير أن الأوروبيين كانوا يحسبون كل صغيرة وكبيرة تصدر منهم على الإسلام.

٤-١ الإسلام: ممارسة دينية

إن قضية الإسلام في الغرب تعني في أبسط معانيها حضورا ذاتيا وفعليا للمسلم في ديار الغربة التي تحولت، مع الأجيال ومع موجات الهجرة، إلى بلد سكن واستقرار.

ويتطلب هذا الحضور من المسلم المدرك لإسلامه ضرورة التزام تعاليمه، والتصرف بالشكل الذي يدعو إليه الدين الحنيف. فقضية الإسلام في الغرب تعني أولا قضية الإنسان المسلم في بلاد المهجر أو في بلد الاستقرار. هذا المسلم الذي يحسب عليه أي تصرف مهما علا شأنه أو صغر. هذا المسلم الذي يراقب في حركاته وسكناته؛ لأنها في اعتقاد أهل الغرب حركات الإسلام وسكناته.

ونعتقد أن من أولى الأولويات حين الحديث عن الإسلام في الغرب

هو ضرورة التمييز بين سلوك له صلة مباشرة بالإسلام، وسلوك آخر هو وليد ممارسات اجتماعية قديمة يختلط فيها الدين برواسب ثقافية تمتد جذورها إلى البلد الأصلي، ولا نغالي إذا قلنا إنها ذات مرجعية «وثنية».

وحين نضع المسألة في هذا المنظور ينبغي أن تكون نظرة الأوروبيين إلى قضية الإسلام في الغرب نسبية بالنظر إلى تلك العادات والرواسب القديمة.

فالشرط الأول الذي يعيننا على فهم طبيعة علاقة الغرب بالإسلام هو عدم تحميل الإسلام مسئولية أدنى تصرف يصدر من المسلمين، وكأنه يتوافق مع تعاليم الدين الحنيف.

والشرط الثاني هو ضرورة أن يعي المسلم في الغرب الأثر النفسي والثقافي الذي يحدثه نظام حياته عند غيره من أهل الغرب، مع ما يعنيه هذا الكلام من حرص على الإحساس بالمسئولية، ومن حرص على تقديم صورة حسنة عن الإسلام وأهله، من خلال الكلمة الطيبة، والوعد الصادق، وصيانة الأمانة، وحفظ الشرف، والإخلاص في العمل، والإحسان إلى الغير، والوفاء، والعهد، والنية، والابتسامة، وحسن الهندام، وجميل الكلام، والأناقة، واللباقة، وحسن المعاشرة، وتدبر القرآن الكريم، وتعميق الفهم في الأحاديث النبوية الشريفة، والإقبال على العلم والثقافة، والانفتاح على اللغات والحضارات، والدخول في حوار هادئ ورصين مع أهل الغرب، خصوصا العقلاء والحكماء وأصحاب النوايا الحسنة من أبنائه وذويه، ومعاملة الجار في إطار من الاحترام، والحرص على سلامة ممتلكاته، وراحة منزله.

إذن هو مجهود كبير يُطالب المسلم بأن يبذله في بلاد الغرب، وفي أرض الغربة، حتى يكون سلوكه مطابقا لثقافته، أي أن يتصرف بطريقة تنم عن انتماء حضاري عريق، وعن ذوق سليم، وعن جمالية في الفعل والقول.

ويكاد يكون هذا المجهود مضاعفا اليوم أكثر من أي وقت مضى خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وبعد تعمد إلصاق تهمة الإرهاب بالمسلمين زورا وبهتانا.

ولقد زادت «حرب الأفكار» في محنة الوضعية التي يعيشها الإسلام في الغرب. وعلى المسلم الصادق أن يخوض في نقاش وسجال بالحوار الهادئ الرزين، في إطار التسامح والاحترام المتبادل، وذلك من أجل المساهمة في إزالة تلك الصورة السلبية عن الإسلام في الغرب عموما.

وحينما نقول المسلم فإننا نقصد الفرد والجماعة والمنظمات والهيئات والجمعيات ودور النشر والثقافة، ووسائل الإعلام على اختلاف أنواعها، والقنوات الإذاعية والفضائية، وعلماء الدين، وفقهاء السياسة، وحكماء الأمة، والمخلصين الصادقين للإسلام وأهله... هؤلاء وغيرهم مدعوون لبذل مجهود مضاعف أمام «حرب الأفكار» تلك.

٤-٢ الإسلام.. في قفص الاتهام!

سبقت الإشارة إلى الأحداث التي شهدتها كثير من المدن الفرنسية نهاية ٢٠٠٥، على إثر سخط الشباب الفرنسي على قرار جديد حول مدونة الشغل. وقد استغل بعض المثقفين الفرنسيين تلك الأحداث ليحملوا الإسلام مسئولية ما حصل.

فهذا الفيلسوف الفرنسي Alain Finfielkraut (2005)[1]، المعروف بعنصريته المقيتة ضد كل ما هو عربي وإسلامي عموما، يشير إلى أن المحرضين على أعمال العنف والضرب والشغب ما هم

(1) - In: Le Nouvel Obdervateur, p. 22. N. 2143. Du 01 au décembre 2005.
(2)- In: Le Nouvel Observateur, p. 22. N. 2143. Du 01 au décembre 2005.

إلا مجموعة بشرية تكره الجمهورية الفرنسية، وتهاجم رموز السيادة الوطنية؛ لأن تلك المجموعة لم تتمكن من الاندماج داخل النسيج الثقافي الفرنسي لأنها تكره الغرب وأهله.

ويعتقد الفيلسوف الفرنسي André Gluksmann (2005)[2] أن النزعة التخريبية التدميرية هي التي حركت ذلك الشباب الغاضب، وهي نزعة تكشف - من وجهة نظره - عن موقف معادٍ لمبادئ الجمهورية الفرنسية الخامسة.

فالشباب الفرنسي يتحمل مسئولية ما حدث، وخصوصا المنتمي منه إلى أصول عربية وإسلامية، وإذا كان لا بد من الحديث عن فشل نموذج فرنسي للاندماج بمعناه الثقافي، فذلك يعني أن الشباب هو الذي لم يتمكن من الانخراط في ذلك المشروع الثقافي الفرنسي الفريد من نوعه.

والفيلسوفان المذكوران أعلاه يدخلان ضمن خانة المثقفين المنتمين لتيار «المحافظين الجدد» في فرنسا الذين ينطلقون من أربعة مبادئ أساسية:

- أن الغرب في حالة حرب، أي في حالة دفاع عن النفس منذ 11 سبتمبر 2001. والغرب يواجه موجة عالمية من الاعتداء على حضارته، وقيمه، وثقافته. وما الهجمات التي تعرضت لها نيويورك ولندن ومدريد إلا دليل على أن العداء ضد الغرب هو عداء موجه ضد مراكزه الثقافية الكبرى.

- نما في خضمّ هذه الحرب الشاملة في أوروبا اليوم تيار يساري متطرف جديد، يتحالف مع الحركات الأصولية الإسلامية، ويكون معها جبهة تعلن معاداتها الصريحة لليهود!! ويعني هذا الكلام أن هذا التيار المحافظ يوجه الأنظار إلى «عدو» داخلي ينقسم إلى طائفتَين: فئة المسلمين في الغرب، وفئة اليساريين الجدد الذين يناهضون

الليبرالية، ويعلنون كرههم لليهود، هذا الكره هو القاسم المشترك بين هاتين الفئتين.

- هذه الحرب الشاملة أوجدت صنفا جديدا من «المثقفين الأغبياء» - حسب تعبير هؤلاء المحافظين الجدد - الذين يرفضون الإقرار بوجود «نظام شمولي ثالث»، ويقصدون به الإسلام، ويجعلونه شمولية ثالثة بعد: النازية والفاشية!!.

- هذه الحالة التي يعيشها الغرب اليوم وهي حالة الدفاع عن النفس، بالإضافة إلى نمو تيار يساري جديد يوالي الاتجاهات الإسلامية في أوروبا، ووجود فئة من المثقفين الجدد الأغبياء، دليل على أن عصر التقدم ولى، ودليل على انهيار القيم الديمقراطية الغربية: اليهودية - المسيحية.

ولعل تيار «المحافظين الجدد» في فرنسا هذا ما هو إلا جزء من توجّه عام من الإسلام وقضاياه تتزعمه بعض الدوائر في الإدارة الأمريكية الحالية. وتكاد تكون القضايا التي يثيرها هذا التيار في فرنسا اليوم ترديدا لما يثيره المحافظون في البيت الأبيض الأمريكي في واشنطن. وما يميزهم خطابهم التشاؤمي الذي يثير الخوف والقلق، ونظرتهم الحاقدة على الإسلام في الغرب، وعدم احترامهم للممارسة الدينية على الطريقة الإسلامية، واعتمادهم الإثارة في مناقشة الموضوعات التي تشغل بال الغرب اليوم، ودخولهم في مواجهة مفتوحة مع كل مثقف يعلن موضوعيته حين الحديث عن الإسلام في الغرب، بل اعتبار كل مثقف من هذا الصنف إنما يضمر عداء لليهود، ويحمل معاول لهدم نظام القيم الغربية. هذا الخلط المقصود من طرف تيار «المحافظين الجدد» يرمي إلى إسكات الأصوات التي لا توافق على الطرح التشاؤمي لهذا التيار. فكل مثقف يعارض هذا التوجه إنما هو

(1) - Richard Buliet: 2006. La civilisation islamo-chrétienne: son passé, son avenir. Editions Flammarion. Paris. 240 pages

يعادي السامية، وهي تهمة تجر أصحابها إلى المحاكم، وتجلب عليهم حملة إعلامية لا يسلم منها إلا القليل من أصحاب العزائم القوية.

ومن المثقفين الفرنسيين المدافعين عن تلك المبادئ الأربعة المذكورة أعلاه، علاوة على Alain Finkielkraut و André Gluksmann الفيلسوف Pierre-André Taguieff، والكاتب الصحفي Alexandre Adler، والروائي المشاغب الذي لا يدع فرصة تمر دون أن يجاهر بعدائه الصريح للإسلام وأهله Michel Houellbecq، والمؤرخة Hélène Carrère d'Encausse... بالإضافة إلى وزير الداخلية الفرنسي الحالي Nicolas Sarkozy.

هذه الموجة المتفاقمة من العداء تجاه الإسلام انطلقت من الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا، غير أن كثيرا من المثقفين الأمريكيين لا يسايرون هذه الموجة، مثل المؤرخ (2006) Richard Bulliet[1] الذي يفضل الحديث عن إرث ثقافي مشترك تتقاسمه المسيحية مع الإسلام.

٤-٣ الحرب المفتوحة ضد الإسلام في الغرب

كشفت دراسة حديثة بجامعة الأزهر، أعدها سيد مرعي وهو أستاذ بكلية التربية، أن عدد المواقع الإلكترونية التي تهاجم الإسلام، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، تتعدى عشرة آلاف (10000) موقع، وأن الميزانية المرصودة لمهاجمة الإسلام في جميع وسائل الإعلام، ومنها الإنترنت، تفوق المليار دولار سنويا.

وأشار صاحب الدراسة إلى أن عدد المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت يصل إلى 200 موقع بميزانية قدرها الإجمالي مليون دولار في العالم الإسلامي كله! [1].

يبدو جليا أننا أمام حرب إلكترونية تبقى مساهمات المسلمين فيها

(1) نقلا عن مجلة «عالم الإنترنت» المغربية (مجلة شهرية) تصدر من أكادير جنوب المغرب. العدد: 18، يناير 2006.

(2) - Le Monde. 62 ème Année. N. 19101. Samedi 24 juin 2006, p.5.

محدودة جدا بالنظر إلى حجم التحديات التي تنتظرهم في ساحة «حرب الأفكار» الجديدة، خاصة تلك المتصلة بحرب المواقع الإلكترونية.

ولعل الدراسة التي قام بها المعهد الأمريكي Pew Research Center في واشنطن في خمسة عشر بلدا أوروبيا (2) تدعونا إلى تغيير كثير من «استراتيجيتنا» في العلاقة مع الغرب.

فقد كشفت الدراسة أن الأشخاص الذين تم استجوابهم في تلك البلدان الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية يجمعون على أن العلاقات سيئة بين العالمَيْن الغربي والإسلامي.

فعن سؤال حول تلك العلاقات كانت الأجوبة، من بلد إلى آخر، على الشكل التالي:

اسم البلد	علاقات جديدة بالنسبة المئوية	علاقات سيئة بالنسبة المئوية
الولايات المتحدة الأمريكية	٪32	٪55
ألمانيا	٪23	٪70
مسلمو ألمانيا	٪29	٪60
فرنسا	٪33	٪66
مسلمو فرنسا	٪41	٪58
إسبانيا	٪14	٪61
مسلمو إسبانيا	٪49	٪23
بريطانيا	٪28	٪61
مسلمو بريطانيا	٪23	٪62
تركيا	٪14	٪64
مصر	٪31	٪58
إندونيسيا	٪39	٪53

وعن سؤال حول المسئول المباشر عن تلك الوضعية كان الجواب:

اسم البلد	المسئول المباشر: المسلمون	ا لمسئو ل المباشر: الغربيون	المسئول المباشر: الجميع
الولايات المتحدة الأمريكية	٪33	٪26	٪22
ألمانيا	٪39	٪17	٪27
مسلمو ألمانيا	٪06	٪46	٪35
فرنسا	٪47	٪28	٪19
مسلمو فرنسا	٪21	٪52	٪21
إسبانيا	٪32	٪10	٪52
مسلمو إسبانيا	٪05	٪28	٪40
بريطانيا	٪25	٪27	٪33
مسلمو بريطانيا	٪11	٪48	٪28
تركيا	٪07	٪79	٪08
مصر	٪01	٪56	٪16
إندونيسيا	٪04	٪64	٪15

يبدو أن العلاقات بين الغرب والإسلام ليست على ما يرام بشهادة الغربيين والمسلمين أنفسهم، وذلك بنسب تفوق المعدل كثيرا في جميع البلدان، ما عدا مسلمي إسبانيا. أما المسئول المباشر عن تلك الوضعية المتردية فكل طرف يحمل المسئولية للطرف الآخر، ولكن ربما غابت وسائل الإعلام عن السؤال. لقد كان من المفيد جدا وضع سؤال حول الدور الذي تقوم به تلك الوسائل في العرض الأمين لصورة الإسلام أو تشويهها في الغرب. فلا شك أن الصورة القاتمة للإسلام في الغرب تعود في قسط كبير منها إلى الطريقة التي تقدم بها تلك

الوسائل الإسلام، خصوصا بعد سلسلة الأحداث التي هزت أوروبا مؤخرا. وغير خاف حالة الهلع والفزع التي تتسبب فيها تلك الوسائل، وهو ما يجعلها أبعد ما تكون عن الحياد والموضوعية.

٥ - وسائل الإعلام في الغرب

تمثل الآلة الإعلامية وسيلة خطيرة في إيصال المادة الإخبارية إلى المشاهد/ المتلقي الذي يجد نفسه في خضم كم هائل من المعلومات، لدرجة يصبح معها الرهان الأكبر لديه يتجلى في الكيفية التي يتمكن من خلالها من انتقاء المعلومات قبل أن تصل إلى بيت المتفرج/ المشاهد دون ترخيص أو استئذان.

فالتحدي المطلوب لا يرتبط بالمعلومات بقدر ما يتعلق بطريقة استغلالها، وكيفية الاستفادة منها بشكل إيجابي وفعال في الوقت نفسه.

فوسائل الإعلام اليوم لا تقف فقط عند حدود تقديم المعلومة أو الخبر، وإنما تسعى إلى أن تجعل لنفسها بصمة أو طابعا يميزها عن الوسائل الإعلامية الأخرى. فقد أدرك أصحاب رؤوس الأموال أهمية تلك الوسائل، فسخروا قدرا هائلا من الإمكانيات البشرية والتقنية والمادية والإشهارية من أجل كسب نفوذ طالما حلموا بامتلاكه.

ولعل أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما أعقبها من إعلان عن حرب شاملة ضد مفهوم يتمطط ويتمدد حسب الأهواء والرغبات والمصالح والمغانم، ونقصد به مفهوم «الإرهاب» كانت الحافز الأكبر في سبيل السعي إلى فرض هيمنة إعلامية تكاد تقدم للمشاهد/ المتلقي طريقة واحدة في نقل الخبر، والتعليق عليه.

---

(1) «الحقيقة الناقصة». ص 14 العرب الأسبوعي (لندن)، السنة الأولى، العدد 32، من 10 إلى 16 ديسمبر 2005.

ولا عجب في الأمر ما دامت العولمة تعني فرض «الرأي الوحيد»، وتنطبق فكرة الأحادية هنا على الإعلام، فتصبح العولمة الإعلامية تنقل وجهة نظر أصحاب الشركات والمقاولات، والمضاربين في سوق الأسهم، وأرباب العمل، ومديري الإدارات والمصالح الخاصة، ورجال السياسة والفكر والأدب، وأصحاب المصالح...

وتقدم الإدارة الأمريكية الحالية نموذجا صريحا لهذا التوجه الإعلامي من خلال امتلاكها لما لا يقل عن عشرين مؤسسة فيدرالية تنتج وتوزع المئات من الأخبار المرئية المصورة «المفبركة» والواقعية تصل إلى ما لا يقل عن 254 مليون دولار، كما يقول جون نيكسون وروبرت ماكيسني (2005) [1].

هذا السعي إلى تأسيس إمبراطورية إعلامية فريدة ووحيدة، من شأنه أن يهدد حقا أساسيا من حقوق الإنسان، ونقصد به الحق في الاختلاف.

٥-١ الإعلام.. أو «صناعة الوهم والسراب».

ليس الإعلام كله ملة واحدة؛ ففيه الصالح والمربي، وفيه الخبيث والمدمر؛ وبين البناء والهدم تقوم حدود فاصلة يستطيع العقل البشري رسمها بكل حرية واطمئنان.

ويهمنا هنا الحديث عن ذلك النوع من الإعلام الذي يبيع الوهم والسراب لشريحة عريضة من المجتمع، خصوصا الشباب العربي المسلم. لقد كثرت في وسائل الإعلام تلك البرامج التي تزعم أنها تنقل الواقع من خلال مسابقات يتبارى حولها بعض المشاهدين الذين يتصورون طريق الشهرة والمجد سهلا مثل سهولة زر آلة التحكم التي تمكنه من الإبحار من قناة فضائية إلى أخرى، وهو جالس في بيته أمام شاشة التلفزيون.

هذا الجلوس يعبر عن حالة من «الشلل» الذهني والعضلي، ذلك أن ما يشاهده المتفرج من صور مترافقصة يجعله في وضعية مشاهد مفتون بجمال الشاشة وألوانها. فالخمول صفة تلازم كل مدمن على السهر ساعات طويلة بين يدي جهاز يسافر به في التاريخ والجغرافيا والأجواء ويحاول «تلفزيون الواقع» أن يصور واقعا مرئيا لا يعني بالضرورة أنه صورة طبق الأصل لما يحصل في الشارع والحي مثلا، وإن كان التأثير النفسي لهذا النوع من التلفزيون يدفع إلى الاعتقاد بأن ما يشاهده المتفرج هو الواقع بذاته.

وتبدو المسألة أنها تحمل انعكاسات سلبية جدا على نفسية الشباب. فالنزوة العارمة تدفعهم إلى تصور «الواقع التلفزيوني» كما لو أنه «واقع واقعي»، في حين أنه قد يكون «وهما»، أي «واقعاً خيالياً».

بل تصل الأمور إلى حد «الخيال الواقعي»، كل هذا يحصل بفضل التقنيات المعلوماتية التي يوفرها جهاز الحاسوب المتطور والمعقد في الوقت نفسه.

وهكذا يصبح «الواقع» في إطار هذا المنظور الإعلامي عبارة عن مراحل تتدرج فيها الحقيقة بين الحاصل فعلا، والممكن حصوله، والذي لا يحصل إلا في الخيال.

والنتيجة أننا نجد أنفسنا أمام:

واقع واقعي La réalité réelle

واقع افتراضي La réalité virtuelle

افتراض واقعي Une virtualité réelle

ومن شأن هذه المستويات أن تترك آثارا نفسية على المتلقي/ المشاهد الذي يتمثل نفسه ضمن الصور التي تلقي بها وسائل الإعلام.

٢-٥ الإعلام: وسيلة حرب جديدة؟

أنشأت وزارة الدفاع الأمريكية مؤخرا وكالة إخبارية، أطلقت عليها اسم Lincoln Group، هدفها تقديم الرواية الأمريكية الرسمية في الشئون المرتبطة بالاستراتيجية العسكرية والسياسية للبيت الأبيض؛ ويتم ذلك عن طريق خدمة إعلامية لفائدة وسائل الإعلام الأجنبية خاصة.

ويعني التقديم هنا اعتماد كل الأساليب التي تراها الإدارة الأمريكية «مناسبة لها» من أجل تمرير سياستها الخارجية عبر وسائل الإعلام الأمريكية والأجنبية، بما في ذلك الوسائل الناطقة باللغة العربية، وتقديم الإدارة والسياسة الأمريكيتيْن في شكل «براق» و«جذاب». وما دامت كل الوسائل ممكنة، خاصة أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن شراء الذمم تدخل ضمن هذا التصور الإعلامي الجديد.

إن علاقة أصحاب القرار في البيت الأبيض بوسائل الإعلام تكاد تكون كلاسيكية، بالنظر إلى حجم تلك الإدارة في تلك الوسائل من الناحية التاريخية، والتجربة التي اكتسبتها عن طريق «استخدامها» لخدمة السياسة الأمريكية الخارجية على وجه الخصوص.

ففي سنة 2002 أنشأت وزارة الدفاع الأمريكية مكتبا إعلاميا باسم Office of Strategic Influence، أو «مكتب التأثير الاستراتيجي»، الغرض منه تقديم معلومات ومقالات وأبحاث ودراسات لوسائل الإعلام الأجنبية خصوصا.

وفي شهر أكتوبر 2003 وقع وزير الدفاع الأمريكي على قرار يأمر الجيش باستغلال وسائل الإعلام والرأي العام والإنترنت، واعتبارها

أدوات حرب كل هذا وغيره يوضح المكانة التي تحظى بها وسائل الإعلام في رسم معالم سياسة الدول العظمى.

تبدو علاقة الإسلام والإعلام في الغرب متشعبة الموضوعات والاتجاهات والقضايا. ولا عجب في المسألة ما دام الغرب - في العديد من دوائره الرسمية - يعتبر نفسه كيانا ثقافيا يتفوق كثيرا على الشرق، وما دام يعتبر الإسلام دينا خطيرا لأنه ينافس المسيحية في عقر دارها، ويستقطب عددا كبيرا من المؤمنين بها، لأنه يدعو إلى التدبر والتأمل والتفكير، أي أنه يخوض في المجالات العقلية ذاتها التي يجعل منها الغرب الأدوات المفضلة لديه، أي الأدوات التي يشتغل بها في مجالاته المعرفية المختلفة. فالإسلام أبعد ما يكون عن تصور فلكلوري للأشياء والمخلوقات والموجودات.

وإذا كان الشرق شرقا والغرب غربا بهذا المعنى التبسيطي التسطيحي الذي يعني فصلا موضوعا وقطيعة معرفية بين كيانيْن متباينيْن، فإن الهوة بين العالميْن سوف تزداد اتساعا بسرعة البرق، وسوف يتفاقم سوء الفهم بينهما لدرجة يصبح فيها الحوار غير ذي جدوى، ما دام يشبه حوار الصم البكم.

وإذا سايرنا هذا الطرح الموغل في نزعته التشاؤمية، فإنه ينبغي الإشارة إلى قسط كبير من المسئولية الأخلاقية تتحمله وسائل الإعلام؛ ذلك لأنها تسعى في الغالب الأعم، إلى الإثارة، وإلى التخويف، وتلجأ إلى التضخيم والتعتيم بحسب الظروف والأحوال، وتزرع في النفوس القلق واليأس.

غير أننا لا نعتقد أن القضايا المرتبطة بالإسلام في الغرب كما تثيرها وسائل الإعلام على هذه الصورة البعيدة عن واقع «الأشياء». فصورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، وإن كانت سلبية على العموم، تظل مرتبطة بالجهاز الإعلامي الذي يثير هذه القضية الإسلامية أو تلك.

فعلى إثر الأحداث الأخيرة التي شهدتها الصومال في صيف 2006، وبعد الصعود الإعلامي لنجم ميلشيات «المحاكم الإسلامية» هناك، لم يجد الفيلسوف الفرنسي André Gluksmann (2006)[1] ما يقوله حول منطقة نجهل عنها الكثير من حيث المادة الإخبارية والإعلامية التي تخول فرص الحكم الموضوعي، ومع ذلك لم يتردد لحظة في وصف تلك الميلشيات بالمتطرفة جدا، وقدم دليلا واحدا يؤكد اتجاهها المتطرف، ويتجلى في منعها لنقل مباريات كأس العالم التي كانت تجري في ألمانيا على شاشة التلفزيون الصومالي.

فَكُرة القدم ترتبط بالمتعة والتسلية والترفيه، وهي أيضا ثقافة للإنسان الذي يعيش في عصر اللبرالية والعولمة. والنتيجة أن المنع دليل على نزعة متطرفة، وموغلة في التشدد، لذا ينبغي التصرف بحزم منذ اللحظة الأولى مع تلك الجماعات التي ترفض كثيرا من أنماط السلوك والعيش كما درج الغرب على التصرف وفقها. فرفض كرة القدم هو في الحقيقة رفض لطريقة غربية في الحياة وقف منظور «المحاكم الإسلامية».

(1) - In: Le Figaro, p.14. N19 242. Jeudi 15 juin 2006.

الفصل الثاني

قضايا اسلامية
في بعض وسائل الإعلام الغربية

١ - بعض القضايا المرتبطة بالإسلام في بعض وسائل الإعلام الغربية

نثير هنا بعض القضايا التي يصر الخطاب الإعلامي الغربي على إلصاقها بالإسلام، كما نقترح الوقوف عند بعض مكامن الخلل في ذلك الخطاب انطلاقا من معايير تعتمد الازدواجية (أو الفصام) في النظر إلى الأشياء ووصفها.

ونكاد نجزم أن هذا التفاوت في المواقف يكون القصد منه إظهار الآخر، وكأنه من فصيلة بشرية متخلفة وبدائية، إن لم تكن متوحشة وهمجية.

ومما يثير الاستغراب في مواقف من هذا القبيل أن الثقافة الرائجة في الغرب اليوم عموما تنبني على الحق في الاختلاف، وتدعو إلى التنوع والتعدد. وما مفهوم «التمييز الإيجابي» الذي أشرنا إليه سلفا إلا تعبير عن هذا التوجه الفكري الجديد الذي يكاد يكون "مودة" العصر في الغرب اليوم.

ونشير هنا إلى الخطاب الإعلامي في فرنسا إثر فوز منتخب فرنسا بالمباراة النهائية لكأس العالم في ألمانيا صيف 2006. لقد كان تركيز ذلك الخطاب كبيرا على تعدد أصول لاعبي المنتخب وثقافتهم. وتم الربط بين التعدد الثقافي والعرقي لأولئك اللاعبين وبين شعار فرنسا ذي الألوان الثلاثة (الأزرق والأبيض والأحمر). بل سمعنا حديثا عن «نجاح» نموذج فرنسا لإدماج المهاجرين المنحدرين من أصول ثقافية واجتماعية وعرقية متعددة.

غير أن هذا الخطاب الإعلامي لا يجد أدنى حرج وهو يرى في اختلاف الآخر علامة فارقة على التخلف، ويدعو إلى الاستغراب.

فهو خطاب يتعمد الازدواجية والكيل بمكيالين. فكل ما له صلة به

وبثقافته دليل على التنوع والتعدد والحق في الاختلاف باسم حقوق الإنسان وحقوق الأقليات. وكل ما له صلة بالآخر دليل على التخلف والرجعية، وعدم الوعي، والانغلاق، والتقوقع... وسوف نوضح هذه الفكرة ببعض الأمثلة الحية.

١-١ ثقافة الجسد مرة أخرى

أشرنا فيما سبق إلى تلك الشعارات القديمة الجديدة التي ظهرت في الغرب، والتي تعبر عن مواقف ثقافية فيها كثير من الجرأة والغرور. ومن ضمن تلك الشعارات: «بطننا ملك لنا» و«جسدنا ملك لنا». وندرك جيدا ما وصل إليه ذلك الجسد من حالة التردي نتيجة الاستغلال المفرط له، لدرجة أصبحت فيها الدعارة اليوم سوقا جديدة للنخاسة.

فبقدر تطور الأفكار والمبادئ والشعارات حول «حقوق الإنسان» نجد ذلك الاستغلال المفرط للجسد، ما دام الجسد ملكا لصاحبه (حسب هذا التصور المغلوط).

وحين يتحدث الخطاب الإعلامي الغربي عن الإنسان المسلم في علاقته بالجسد نجده يتصور تلك العلاقة وكأنها تقوم على صراع بين الفرد وذاته. والصراع سمة تميز الفكر الغربي عموما.

وهكذا تصل الجرأة في بعض الكتابات الإعلامية الغربية إلى حد يجعل من الوضوء مثلا «علامة» دالة على «تلك العلاقة المتوترة بين الفرد المسلم وجسده». فالوضوء معناه «إزالة لنجاسة تخرج من البدن». ولكن هذا الخطاب لا يرى فيه طهارة وتنقية للجسد، ولا يرى فيه علامة صحية متميزة. ويتحول الوضوء - حسب ذلك الخطاب - إلى «هوس» يتحكم في إيقاع الحياة اليومية للفرد المسلم. فمثل هذا الخطاب يريد أن يقحم مسألة الصراع في علاقة الفرد ببدنه. ولسنا ندري أين وجد الدارسون صراعا من هذا القبيل؟ وهل المسلم حينما يقوم بالوضوء هل يشعر بضرورة القيام بذلك دون أن

يبدي رغبة شخصية في التطهر؟ وهل معنى هذا أن القيام بالشعائر الدينية في الإسلام يتم عن طريق قوة رادعة لدرجة يرفض المسلم جسده؟ وهل الصراع الذي يميز الثقافة الغربية ينبغي أن ننقله كما هو إلى الثقافة الإسلامية؟ وهل يستقيم مثل هذا الإجراء التعسفي من الناحية المنهجية؟

غير أن هذا الجسد في الغرب حينما يستعمله صاحبه للدعارة مثلا، مع ما يترتب على ذلك الاستعمال من عواقب صحية ونفسية خطيرة، يصبح دليلا على سلوك اجتماعي واقتصادي وأخلاقي ينبغي قبوله باسم الحق في الاختلاف وباسم حق الملكية الشخصية.

وحينما تكونت جمعيات نسائية في فرنسا أغلبهن شابات من أصول مغاربية، رفعن شعار: «لسنا عاهرات ولسنا خانعات» «Ni putes ni Soumises».

لقد تحمس الخطاب الإعلامي الفرنسي كثيرا لمثل هذه الجمعيات، ووصفها بالريادة الاجتماعية والفكرية والثقافية، ذلك أنها تقود ثورة ضد تقاليد مغاربية مستمدة من الإسلام. فهؤلاء الشابات رفعن ذلك الشعار للتعبير عن غضبهن على وضعيتهن داخل أسرهن المغاربية التقليدية؛ فهن يرفضن العيش تحت وصاية الأب أو الأخ الأكبر، لذا يردن الخروج من المنزل بكل حرية وطلاقة. وخروجهن لا يعني إطلاقا ارتماءهن في أحضان الرذيلة والفساد، ولكنهن يردن العيش والتصرف بالطريقة التي تبدو لهن مقبولة ومناسبة.

هذه هي بعض ملامح ثقافة الجسد الجديدة في الغرب. وهي حق من حقوق الإنسان اليوم في فضاء الثقافة والإعلام الغربيين.

١ -٢ مركزية الغرب

هذا التفاوت في المعالجة الإعلامية لقضايا تبدو متشابهة بين بيئة وأخرى، يكشف عن تصور يصر على أن يجعل من الغرب «مركزا

للكون». وحين نتحدث عن المركز، فذلك يستدعي حتما وجود هامش أو مجموعة من الهوامش.

فالغرب في مركزيته الفكرية والثقافية يرغب في أن يظل على الدوام هو «المصدر» الوحيد للثقافات، والعادات، وأنماط العيش، ومناهج التفكير، وطرق البحث، وأشكال المودة، ووسائل الترفيه... وما على «الآخرين» إلا استهلاك السلع والبضائع والمنتوجات، وما عليه إلا استنساخ الثقافات والمناهج والأفكار.

فالغرب القوي يمتلك سلطة تمكنه من فرض قوته، والغرب المتفوق ينبغي أن يحظى بالإجلال والاحترام والإكرام.

وغير خاف أن مركزية الغرب تعبر عن صراع وجودي يحيا به هذا «الغرب» من الناحية الثقافية. ولا عجب في المسألة مادام هذا الصراع امتد إلى الإله الخالق. فحديث الفلسفات الغربية عن «موت الإله» ما هو إلا تمهيد للإعلان عن ميلاد «إله جديد»، هو ذلك الإنسان الغربي «السوبرمان» Superman.

وإذا وصل هذا الغرب في ثقافة الصراع تلك إلى درجة الحديث عن صراع مع الإله، فكيف سوف يكون حال الإنسان الآخر في دائرة الصراع تلك؟

إن فكرة الصراع تعبر عن قلق دائم من إمكانية أن يبرز الآخر، وأن يتفوق في ميادين فكرية شتى. وهو ما يحصل الآن. والقلق تعبير عن حالة نفسية فيها كثير من الاضطراب، وقليل من الاطمئنان.

وتعني المركزية إحساسا بالتفوق. وقد يولد التفوق انطباعا بتميز الغرب، وتفرده في القيادة والريادة، وما هي إلا خطوة لنصل إلى فكرة الاستعلاء، وما يرتبط بها من غرور وكبرياء وتضخم الأنا.

ثم بعد هذا كله: ماذا بقي لهذا الفكر الغربي من خطاب لكي

يمجد الذات، ويوصلنا إلى فكرة «شعب الله المختار»؟!

إن الحديث عن «مركزية الغرب» يعبر عن توجه استعلائي، واستكباري، ونكاد نقول استعماري يجعل الغرب هو القطب، والباقي يدور في فلكه.

ولعل هذه المركزية هي التي أوجدت جملة من المفاهيم، منها «العالم الثالث»، و«مجموعة الدول النامية»، و«الدول السائرة في طريق النمو»، و«الدول السائرة في التطور» و«الدول البارزة»، و«التنيت الأصفر»، في مقابل «نادي الكبار»، أو مجموعة «الدول الثمانية» الأكثر تصنعا وتقدما.

ولعل هذه المركزية هي التي جعلت الدول الأوروبية التي تطل على حوض البحر الأبيض المتوسط تلتقي مع دول شمال إفريقيا في إطار مجموعة تعرف باسم « 5+5»!.

وتصبح هذه المجموعة بالمنطق الرياضي عشرة!.

غير أنها في حسابات الدول الحضارية والاستراتيجية غير ذلك تماما، إذ تظل خمس دول متقدمة تجتمع بخمس دول تسير في طريق النمو، وشتان ما بين المجموعتين.

٣-١ «الحرب العالمية الثالثة»

انقلبت كثير من المقولات والمفاهيم غداة أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما تلاها من إعلان عن «حرب ضد الإرهاب».

وقد رأى كثير من المفكرين الغربيين في تفجيرات نيويورك وواشنطن، وما أعقبها من انفجارات في لندن ومدريد خصوصا دليلا على صدق مقولة «صدام الحضارات». فما حصل ناتج عن صراع فكري بين غرب مسيحي متقدم، وشرق مسلم متخلف. وما وقع من

أحداث دامية دليل على مدنية الغرب مقابل همجية الشرق، وما جرى تعبير عن درجة الكراهية التي يضمرها الشرق للغرب!

وأدى هذا الوصف المأساوي إلى اعتبار المواجهة بين الغرب والإسلام مسألة حتمية، تتطلب فقط وقتا مناسبا لحصولها! فالحرب قادمة لا محالة. وتتجلى بوادرها في «حرب الأفكار» التي أطلقتها دوائر في الإدارة الأمريكية. كما بدأت تتضح ملامحها في تعبيرات لا تخفى مراميها البعيدة على أحد، من قبيل «الحروب الصليبية»، و«الفاشية»، و«الراديكالية»، و«التطرف»، و«الأصولية»، وراح كثير من المثقفين الغربيين يعبئون الرأي العام الأوربي والأمريكي لحرب عالمية ثالثة!.

ولاحظنا في الخطاب الإعلامي الغربي مؤخرا إعادة الحديث عن «الحروب الصليبية»، وعن ملفات ضخمة خصصتها لها أغلب المجلات الأسبوعية الفرنسية، مثل Marianne، وLe Point، وLe Nouvel Observateur، وL'Express.

ولا شك أن ردة فعل الغرب عقب ما حصل في نيويورك ولندن ومدريد يعبر عن انفعال شديد، ويترجم حالة من القلق والغضب. غير أن العواطف العمياء لا ينبغي أن تقودنا إلى محاكمة عامة للشرق والإسلام بسبب آثام البعض من أهله، وخطايا فئة منه.

ومما يثير الانتباه أن «الحرب على الإرهاب» كانت فرصة سانحة لكثير من المثقفين المنتمين أصلا إلى الإسلام لكي يثيروا نقاشا حول الدين والتدين بكثير من الجرأة. وقد تتعدى تلك الجرأة في بعض الأحيان حدود اللياقة. وهكذا أصبحنا نقرأ ونسمع ونشاهد خطابا ليس عن الإسلام، وإنما عن «الظاهرة الدينية». ويتحول رمضان المبارك، شهر الصيام، إلى مجرد «مناسبة» يلتقي فيها الأهل والأحباب من أجل السهر، وليس من أجل «قيام الليل».

بل تجرأ البعض وحاول إثارة قضية شائكة من قبيل سؤال يشبه

إلى حد كبير فخا منصوبا لصغار العقول: هل يمكن تطبيق العلمانية في البلدان الإسلامية؟

وفي خضم هذا الجدل الذي يصاحبه صراخ وصياح في غالب الأحيان أثار بعض مثقفينا قضية تتعلق بإمكانية تجاوز الدين والتدين، وأعلنوا «الإلحاد» الفكري مذهبا جديدا لهم، ودعا بعضهم إلى إحياء نعرات طائفية محلية وإقليمية.

وبذلك تحولت الأحداث الدامية في العراق اليوم مثلا إلى مواجهة مفتوحة بين الإسلام «السني» والإسلام «الشيعي»! وانتقلت المشادات إلى داخل المساجد التي تحولت إلى «قلاع عسكرية»!.

والنتيجة أن خطاب بعض مثقفي الغرب يتقاطع مع خطاب بعض مثقفينا في الشرق. وهو خطاب يحمل نظرة فيها كثير من التشاؤم، والتسرع إلى إعلان بداية المواجهة بين الإسلام والغرب. ولا يخفى التأثير النفسي الذي يحدثه مثل هذا الخطاب التدميري في الضمائر والعقول. ولا نعتقد أن دور المثقف الريادي داخل المجتمع يسمح له بزرع بذور الفتنة والقلق في النفوس البشرية الآمنة المطمئنة، كما لا نتصور أن تتحول الكلمات إلى طبول حرب. ونربأ بالمثقف أن تتحول «دراساته» و«تحليلاته» إلى مستوى من الضحالة، وضيق الأفق، لدرجة يصبح فيها الإسلام مثلا «إسلاما سنيا» وآخر «إسلاما شيعيا»، وربما نسمع غدا حديثا عن «إسلام كردي» وآخر «أمازيغي»!!.

وما هي هذه «الحرب العالمية الثالثة» التي يلوحون بها في الأفق، وكأنها بشارة خير، وكأنها فأل حسن على البشرية؟

ولماذا انخرط كثير من أبناء جلدتنا في تمرير خطاب تشاؤمي يتعجل بحضول المواجهة بين الشرق والغرب؟

وماذا يكسب هؤلاء وأولئك من الخراب والدمار؟

إننا أمام صنف جديد من المثقفين لا يهمهم مصير الأبرياء، ولا دماء الضحايا، ولا صرخات الأطفال، ولا نداءات الكهول والشيوخ والمسنين والعجزة، ولا أحلام الشباب، ولا نزقهم، ولا طيشهم... إنهم يريدون إشعال نار حرب، الخاسر فيها هو الجنس البشري.

فهل هؤلاء المبشرون بحرب قادمة ينتمون إلى هذه الطينة البشرية؟

وماذا لو استخدم هؤلاء وأولئك عقولهم، وأحلامهم، وأفهامهم لأجل صالح البشرية، أي من أجل تعمير الأرض.

٢ - بعض مثقفي الشرق والخطاب الإعلامي الجديد في الغرب

نقصد بهذا العنوان مجموعة من المثقفين المنتمين أصلا إلى الإسلام الذين أصبحوا يتبنون أطروحات الخطاب الإعلامي الغربي حول قضايا تهم الإسلام والمسلمين عموما. إننا حين نتحدث عن هؤلاء المثقفين فلكي نناقش الأفكار التي يثيرونها، أما النوايا فهي سر من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وحين نتحدث عن هؤلاء المثقفين أيضا فذلك لأنهم كتبوا مقالات أو دراسات، ونشروها في الجرائد والصحف والمجلات، أو عبروا عن آرائهم على شاشات التلفزيون وبلغات أوروبية مختلفة.

ونود أن نشير أخيرا إلى أننا لا نسعى إلى التهويل أو التقليل من آرائهم، كما لا نرمي إلى تأليب الرأي العام عليهم، ولا نرغب في الانتصار لهم أو الوقوف ضدهم، وإنما نسعى إلى أن نعبر عن مواقفنا الخاصة إزاء ما يبسطونه من قضايا إسلامية، وأن ننبه العقلاء منهم إلى أن خطاباتهم الجريئة جدا تجاوزت في كثير من الأحيان الطريقة الاستفزازية التي اعتاد الإعلام الغربي أن يناقش

بها قضايانا الفكرية والثقافية عامة. وحين نناقش تلك الآراء فذلك لأنها أصبحت عمومية، أي شائعة بين الجمهور، وبتوقيعات أصحابها الحقيقيين، وليس الوهميين.

كما أننا نتحاشى الحديث عن نزعة فرنكوفونية عند أغلب هؤلاء المثقفين المنتمين أصلا إلى الشرق وأهله، وإن كانت المسألة واضحة للعيان وإذا كانت الفرنكوفونية تعني التحدث باللغة الفرنسية، وقراءتها، وكتابتها، ونشر المؤلفات والمقالات، والمساهمة في الندوات العلمية والمؤتمرات الفكرية باللغة الفرنسية، وتمضية فترة زمنية طويلة في باريس لغرض الدراسة الجامعية الأكاديمية، وتحضير أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون العريقة، فكاتب هذا المؤلف المتواضع جدا تنطبق عليه هذه الصفات جميعها دون استثناء.

ونأسف للتمهيد لهذه المسألة بهذه الطريقة التي تذكرنا كثيراً بالكيفية التي يتناول بها الخطاب الإعلامي الغربي أحداثا اجتماعية تقع في أوروبا، ويكون المتسببون فيها مباشرة - حسب ذلك الخطاب - فرنسيين من أصول مغاربية مثلا.

فجرائم القتل والسرقة والاعتداء والاغتصاب يتحول الجاني فيها إلى شخص تحمل ملامح وجهه العامة سحنة مغاربية، ويتم التركيز على هذه الأوصاف قبل أن تستوفي الشرطة عناصر البحث، وتستكمل المحكمة تحرياتها وحيثيات هذه الجريمة أو تلك. وكم من مرة اتهمت وسائل الإعلام الغربية مسلمين في

---

(1) هو صاحب مجموعة من المؤلفات، نذكر منها فقط تلك التي صدرت مؤخرا:
-Malek Chebel: 2004. Anthologie du vin et de l'ivresse en Islam. Editions dy Seuil. Paris.. 385 pages.
-Malek Chebel: 2005. L'Islam et la raison: le combat des idées. Editions Perrin. Paris. 240 pages.
-Malek Chebel: 2005. L'Islam, passion francaise. Une anthologie. Editions Bartillat. Paris. 380 pages.
-Malek Chebel: 2006. Le Kama Sutra arabe: Deux Mille ans de littérature amoureuse en Orient. Editions Pauvert. Paris. 500 pages.

ارتكاب أفعال برأتهم منها المحكمة!!!.

ونورد فيما يلي نماذج لبعض الآراء التي نقرأها في الخطاب الإعلامي الغربي، الصادرة عن بعض المثقفين المنتمين أصلا إلى الثقافة العربية - الإسلامية. ويعيش أغلبهم في ديار الغرب، ويحمل معظمهم جنسيات البلدان الأوروبية التي يعيشون فيها. وسوف يلاحظ القارئ أننا نولي اهتماما خاصا بالمثقفين الذي يكتبون باللغة الفرنسية لاعتبارات شخصية عديدة، أشرنا إلى بعضها أعلاه.

ونبدأ الحديث بالمفكر الجزائري الأصل Malek Chebel. فهو باحث أنتروبولوجي ويعتبر من أكثر المفكرين إنتاجا [1] وحضورا في وسائل الإعلام الفرنسية خاصة. ويمتاز هذا الباحث بثقافته العربية الرصينة، واطلاعه الكبير على التراث العربي الإسلامي.

وتتمحور جل دراساته المنشورة باللغة الفرنسية حول الجنس والخمرة عند العرب القدامى عموما. فهو صاحب «مختارات للخمر والسكر في الإسلام» (سنة 2004)، وهو أيضا صاحب «معجم جنسي في الإسلام» (سنة 2004 أيضا)، وهو مؤلف كتاب حول «تاريخ الممارسة الجنسية في الشرق» (سنة 2006). كما ألف مجموعة من الكتب حول العلاقة بين «الإسلام والعقل» (سنة 2005).

والخطير في كتاباته زعمه بعدم «وجود تحريم للخمر في القرآن»، وادعاؤه عدم «وجود أي قيد أو شرط في الممارسات الجنسية بين الرجل والمرأة». والقيد الوحيد الذي يشير إليه هو موافقة الشريكين في تلك الممارسات؛ أي أن تتم العملية الجنسية بعيدا عن أي مظهر من مظاهر العنف». فكل شيء «مباح» حسب تصوره الخاص. بل نجده، وهو يقر بتحريم الإسلام للشذوذ الجنسي مثلا، يوهم القارئ العادي وكأن المسلمين اعتادوا عبر تاريخهم الطويل على ممارسات جنسية مثلية، مثل الاغتسال جماعة، والإمساك باليد، والنوم جماعة.

هذا الكلام الخطير، وغيره كثير، يحظى بتغطية إعلامية كبيرة،

خاصة وأن الباحث ينشر دراساته، معتمداً منهجا أكاديميا في الإحالة والتوثيق، ولكن أيضا في المغالطة «وتعويم» القارئ!.

ويدعو هذا المفكر المسلمين - من خلال الإعلام الفرنسي - إلى ضرورة قراءة القرآن الكريم قراءة جديدة، أطلق عليها تسمية عجيبة: «القراءة النسوية»، دون أن يفصح عن مضمون الطابع «النسوي» في قراءات من هذا القبيل. ولعل التسمية تذكرنا بتعبير مناقض لها، ونقصد «القراءة الرجولية» بما تمتاز به الرجولة من صلابة وخشونة وقوة وبأس، ولكن أيضا لما تمتاز به من صلف، وجفاء، ورعونة، وعربدة، وفحولة. والنتيجة أن القراءة تنسحب مباشرة على القارئ، وبذلك يصبح الرجل العربي ذلك الوحش الأعرابي، وتتحول المرأة إلى كائن ضعيف وواهن.

فكأن مفهوم «القراءة النسوية» يدعونا إلى التعامل مع القرآن الكريم بصورة ليست فيها رقة المرأة، وإنما ضعفها وضحالة تفكيرها. وربما تكشف هذه الصورة عن حقيقة موقف الكاتب نفسه الذي يبدو أنه يحمل صورة سلبية عن المرأة، وذلك حينما يربطها بصفات العجز والهوان.

ويقترح هذا الباحث خمس أوراش من أجل «إصلاح الإسلام» حسب تعبيره [1]، يجملها في العناصر التالية:

1- تشجيع التفاسير الجديدة للنصوص المقدسة (ويقصد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة).

2- التأكيد على تميز الفرد وأهميته وأسبقيته، بل وأفضليته على الجماعة. وهو بذلك يدعو إلى التخلي عن فكرة الجماعة الإسلامية. وإذا حللنا هذه المقولة أكثر فسوف «تسقط» الصلاة في المسجد ما

1- Malek Chebel: 2006. Les 5 chantiers de L'Islam.

Le Nouvel Observateur. N. 2152. p.21. Du 02 au 08 février 2006.

دامت تتم جماعة! وتزول خطبة الجمعة، بل تزول تسمية اليوم الأسبوعي، لارتباطه بكل ما له صلة بالتجمع؛ أي الكثرة والعدد.

3- التأكيد على أهمية الجانب السياسي وأسبقيته على الجانب الديني، فمثلما تخلى الغرب عن سلطة الكنيسة، فعلى المسلمين اليوم أن يضعوا حدا لسلطة المسجد! والأمر هنا عبارة عن دعوة صريحة لتبني العلمانية بمعناها الشائع الذي يقوم على الفصل التام بين الممارسات الدينية وبين شئون الحياة اليومية.

4- إعادة الاعتبار إلى مكانة المرأة في الإسلام.

وتكفي الإشارة إلى مسألة «إعادة الاعتبار» لكي يفهم القارئ أن «مكانة المرأة في الإسلام متدنية جدا». والإعلام الغربي لا يكف عن ترديد هذه المقولة. فكيف سيكون الموقف عندما يرد هذا الحكم من شخص مثقف ينتمي إلى الإسلام وثقافته؟

5- إعلان «الحرب المقدسة» مسألة متجاوزة وغير مجدية.

وهو يقصد «الجهاد» تحديدا. ويدعو فقهاء الإسلام إلى إعطاء الأولوية لتلك الآيات القرآنية التي تدعو إلى السلم والمحبة والإخاء.

والقارئ لهذا المبدأ الخامس يتصور الإسلام وكأنه دين حرب، وأنه لا يقوم إلا بحد السيف، وأنه لا يستقيم إلا بالإرهاب، وأنه يحبب القتل والتدمير والتنكيل والبطش وإراقة الدماء، وأن المؤمنين به ما هم إلا جماعة من المجانين ومصاصي دماء، على شاكلة دراكولا.

والخطير في هذه الشعارات الخمسة هو ما لا تفصح عنه أي:

---

(1) نحيل القارئ الكريم على سبيل المثال على الافتتاحية التي خصصها لهذا الموضوع الحساس جدا في فرنسا السيد Jean-Francois Kahn رئيس تحرير الأسبوعية الباريسية Marianne في العدد 488 بتاريخ 28 غشت - 01 شتنبر 2006.

- الدعوة إلى تأويل جديد للقرآن الكريم والسنة النبوية لا يراعي التفاسير القديمة، أي إحداث قطيعة تامة مع التراث العربي - الإسلامي.

- الدعوة إلى مكانة الفرد، أي حرية الفرد في اتباع تعاليم الإسلام بالشكل الذي يرغب فيه، دونما مرجعية فقهية أو سلطة شرعية، أي إعطاء قيمة للفرد المواطن على حساب الفرد المؤمن. يحدث هذا في وقت ارتفعت فيه أصوات مثقفين يهود في فرنسا اليوم تندد بالمغالاة في الإحساس بالانتماء إلى الطائفة والجماعة لدى يهود فرنسا (1).

- فصل الدين عن الدولة بشكل تام، وإقرار العلمانية (ومعها وبعدها الليبرالية) مذهبا وشريعة وعقيدة في العالم الإسلامي كله، أي الاكتفاء بحضور صوري لرموز الإسلام، وإدخاله ضمن معالجة ثقافية تذكر بالتراث القديم، أي بالأساطير أو أساطير الأولين.

- إعطاء المرأة الحرية الكاملة في التصرف في جسدها وحياتها بالشكل الذي تراه مناسبا لها، ما دامت فردا، والفرد له الأسبقية على الجماعة (حسب المبدأ الثاني).

- إلغاء الجهاد بالمعنى المقرر في الشريعة بقواعده وأحكامه، و«تغييب» الكرامة والأنفة والشرف والعزة، و«قتل» للرجولة، و«تيئيس» للهمم، أي أننا أمام دعوة بئيسة للهوان، وهي امتهان لكرامة الإنسان المسلم. والحديث هنا عن الجهاد بمعناه القرآني الشرعي وليس بالمعنى المتبنى في الساحة اليوم.

فإصلاح الإسلام بالشكل الذي يثيره الباحث Malek Chebel ما هو إلا شعار خاوي الوفاض، بل نحن أمام معاول هدم حقيقية مست العقيدة والجماعة والشريعة والفرد وأركان الإسلام!

1- Boualem Sansal: 2006. Poste restante: Alger. Editions Flammarion. Paris.

والنتيجة أن الأوراش الخمس المقترحة لا تلبي حاجات المسلم بقدر ما تشغله عن ممارسة شعائره الدينية بكل راحة واطمئنان. فالمقترحات أعلاه تقوم على الهدم، والمسلم بحاجة اليوم إلى البناء والإصلاح.

وينشر الكاتب الجزائري الروائي بوعلام صنصال (2006) [1] كتابا يهاجم فيه بشكل عنيف دستور الجزائر الذي ينص على أن دين الدولة في البلاد هو الإسلام. وهذا يعني في اعتقاده أن الشعب الجزائري برمته مسلم، وأن غير المسلم هو غير جزائري.

وبما أن درجات الإيمان والاعتقاد متفاوتة، فإننا سوف ندخل في دوامة عواقبها غير مأمونة. والحل في اعتقاد هذا الروائي [1] يتلخص في «اعتماد العلمانية».

وينصح الحكومة الجزائرية بإلغاء التعليم الديني من المدارس العمومية، ويدعو إلى إغلاق أماكن العبادة التي نشأت في أقبية البنايات والعمارات، وينادي بضرورة العودة إلى نظام نهاية الأسبوع العالمي (أي السبت والأحد)، ويحرض السلطات العمومية لكي تخفض من صوت مكبرات صوت المآذن، ولا يبدي حرجا في إدراج الزكاة ضمن الضريبة العامة، ويحث على إدخال عملية بناء المساجد ضمن التصميم المديري للمدن.

ويزعم هذا الروائي أن اللغة العربية الرسمية في الجزائر تختلف كثيرا عن اللغة التي يستعملها الجزائريون، وهو ما يجعل هذه الحالة - حسب الكاتب - شبيهة بالوضع الذي كانت عليه أوروبا في فترة العصور الوسطى.

ويدعو الحكومة الجزائرية في الأخير إلى اعتماد اللهجة الجزائرية

1- In: Le Nouvel Observateur. N. 2158. p.16. mars au 22 mars 2006.

لغة وطنية في البلاد إلى جانب اللغة الفرنسية.

فهذا الروائي يهاجم دستور بلاده، ويدعو إلى تغييره، وينادي بالعلمانية في مجتمع يعترف هو نفسه أنه مجتمع مسلم. كما يدعو إلى حذف التعليم الديني، ويرغب في العودة إلى عطلة نهاية الأسبوع يوميّ السبت والأحد، لأنها - حسب زعمه - عطلة عالمية. والعالمية في عرف هذا الروائي هو كل ما يصدر عن الغرب. ويريد صاحبنا أن يخضع بناء المساجد لنظام معماري خاص، وكأن البناء الحالي لتلك المساجد يعمل على تشويه جمال المدن الجزائرية.

ويبدو موقفه واضحا من اللغة العربية التي تحولت إلى لغة كلاسيكية؛ ذلك لأنها تذكره بالقرون الوسطى في أوروبا، أي عصر الظلمات والتخلف والجهل.

والحل في نظره يكمن في اعتماد اللغة الجزائرية (اللهجة) لغة رسمية إلى جانب اللغة الفرنسية.

ونستغرب كثيرا الحديث عن اللغة الفرنسية بالذات في هذا السياق. فإذا كان هذا الروائي يتحدث عن العالمية، وإذا كان لا بد من اختيار لغة ترتبط من الناحية الإيديولوجية على الأقل بفكرة العولمة، فما عليه إلا اختيار لغة تحتل مكانة مرموقة على صعيد اللغات العالمية اليوم، ونقصد تحديدا اللغة الإنجليزية أو الإسبانية. أما اللغة الفرنسية التي يريدها لغة رسمية للجزائر (وكأننا في عهد استعماري عفا عليه الزمن) فهي تحتل مراكز متأخرة جدا عن اللغة العربية من حيث الاستعمال والانتشار.

كل هذا يوضح أن الدعوة إلى العلمانية والعالمية ما هي إلا شعارات

1- Mohamed Talbi. In: Jeune Afrique/ L'Intelligent. N. 2346-2347, PP. 48-51. 46 ème Année. Du 25/12/2005 au 07/01/2006.

تفتقد الجدة والقوة المنطقية.

أما المفكر التونسي محمد طالبي (2006) [1] فلا يجد أدنى تعارض في ممارسة الشعائر الإسلامية وبين قيم الحداثة الغربية، لكنه يتدارك المسألة ويعتبر حصول التوافق بينهما ممكنا شريطة تحقق شرط واحد: وهو التخلي التام عن الشريعة الإسلامية.

ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم قائلا: «نعم أنا مسلم قرآني».

Moi، moi je suis un musulman coranique.

غير أنه يعود ليعتبر القرآن نصا تاريخيا فقط.

ويشير إلى اتجاه فكري تتزعمه جامعة منوبة في تونس، ويقوم على اعتبار دراسة القرآن أمرا ممكنا، شريطة «إزالة» هالة القداسة عن القرآن، أي شريطة اعتباره نصا «عاديا»، يمكن تفسيره وشرحه وتحليله وتأويله. ويشير المفكر طالبي إلى أن الأستاذ محمد الشرفي يحمل لواء هذا الاتجاه، كما يذكر المفكر التونسي المعروف هشام جعيط ضمن رواد هذه المدرسة التونسية الجديدة في التفسير الديني. فجعيط لا يتردد في الحديث عن «إسلام علماني»، أي إسلام دون إله.

ويعتبر الباحث محمد طالبي القرآن الكريم كتاب هداية، غير أن الوصف لا يعني إطلاقا - حسب زعمه - أنه يمكن أن يكون شريعة أو قانونا!.

وحين يصل إلى الحديث عن رمضان نجده يعتبر الصوم مسألة «تخضع لمزاج الصائم»! فهو لا يطيق الصيام في يوم حار من أيام الصيف الملتهبة، خشية أن يموت من العطش!.

1- Allal El Maleh، 2005. Le surcoût de ramadan، p. 3. Perspectives du Maghreb، N. 7. Novembre 2005. Casablanca.

نلاحظ أننا انتقلنا من تلك الآراء التي تتحدث عن قضايا عامة مرتبطة بالإسلام، وتدعو إلى حذفها أو إلغائها. أما في حالة المدرسة التونسية هذه فالأمر يختلف تماما. إننا أمام دعوة فيها انتقاء لبعض الممارسات الإسلامية، إننا نلج إلى ما يكوّن الشريعة، ونختار منها ما يناسبنا، وندع ما لا طاقة لنا به!.

إنه منهج انتقائي يسعى إلى النسف والتدمير من الداخل (وليس من الخارج).

ويدعو الكاتب الصحفي المغربي علال المالح (2005) [1] إلى التخلي عن ذلك الجو المطبوع بالنفاق السياسي والثقافي كلما حل شهر رمضان! ويزعم أن النشاط الاقتصادي يصيبه الشلل، وكأننا في حالة إضراب عن العمل. ويصف المؤذنين «بأسياد التلوث الصوتي»! ويقدم لنا درسا فيما يسميه «الإيمان الحقيقي»، ويقصد به ذلك الإيمان الذي يقوم على الثقة في طاقات الشعب، وتجنيده حول مشروع تنموي مجتمعي واضح. وبعبارة أخرى: يدعو الكاتب إلى إحلال العمل محل الدين!.

أما الباقي فما هو إلا ديماغوجيات لا تعمل إلا على شل حركة المغرب الاقتصادية.

تبدو النزعة التدميرية التخريبية واضحة في كلام هذا الكاتب الصحفي الذي يدعونا ظاهريا إلى العمل، ولكن حين نتمعن في كلامه مليا نجده يحسب ممارسات اجتماعية خاطئة على الإسلام. وهو يعي جيدا أن لا علاقة للإسلام بتلك الممارسات.

فالصوم الذي يكثر حوله الحديث في وسائل الإعلام المغربية الفرنكوفونية كلما حل شهر رمضان أصبح يمثل عبئا على جملة من المثقفين الذين لا يطيقون الإمساك عن الطعام والشراب وأشياء أخرى طيلة أيام الشهر الفضيل. وهم يرغبون ليس فقط في عدم الصيام، وإنما يريدون المجاهرة بالأكل في الساحات والأماكن العمومية، باسم

حق الإنسان في ملء بطنه بما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات والمرطبات. والخطأ الفادح الذي يقع فيه هؤلاء المضربون عن الصيام هو رؤيتهم الضيقة لرمضان من هذه الزاوية الشهوانية الغريزية فقط، أي الامتناع عن شهوات البطن والفرج.

فهذه النظرة التي تقلل من قيمة رمضان، وتحصره في زاوية ضيقة لا تخرج عن ضرورات عادية طبيعية لدى الإنسان، تتعمد إبعاد الجانب الروحي في رمضان، وتتحاشى الخوض فيه، لما يمثله من قيمة زائدة عند الإنسان العاقل والسوي والسليم. كما تتعمد حصر رمضان في ممارسة اجتماعية طقوسية، ترتبط بالعادات والتقاليد أكثر من ارتباطها بممارسات دينية جاءت مع شهر الصيام والقيام.

إننا حين نقرأ كلاما من هذا القبيل حول رمضان عند كثير من مثقفينا نتذكر بالمقابل أدبيات يهودية تدعو إلى العمل، وإلى احترام يوم السبت وباقي الأعياد الدينية اليهودية الأخرى، وذلك لكي يضمن الإنسان اليهودي لنفسه السعادة في الدنيا، لأنه امتثل لأوامر ربه التي تدعو المؤمن إلى إخلاص النية، والجد، والمثابرة. ونلمس هذه الصورة عند مجموعة من الشعراء اليهود المحدثين، مثل الأديب (1970–Nathan1910Alterman) [1].

أما القول بأن الدين الحقيقي هو العمل فكلام مردود بالنظر إلى ارتباط الإسلام بالعمل، من حيث هو قيمة إنسانية كبرى.

ألم يسمع هذا الكاتب الصحفي مقولة نرددها كثيرا في العمل: العمل عبادة؟

ألم يقرأ مضمون الحديث النبوي الشريف الذي يدعو المسلم إلى غرس شجرة، حتى وإن قامت الساعة؟

(1) كان بودنا أن نقدم نماذج من هذا الإبداع في لغته الأصلية، أي اللغة العبرية، ثم نقوم بعد ذلك بترجمة النصوص إلى اللغة العربية، وذلك حتى نتمكن من تقديم صورة عن قيمة العمل وصلته بالأعياد الدينية في التصور اليهودي.

فكيف إذن نجرؤ على رمي الإسلام بتهم ليس لها أساس تاريخي؟

إننا حين نذكر نماذج ثقافية من هذا القبيل، فذلك راجع إلى اللغة التي فضل أصحابها نشر آرائهم الجريئة بها، وهي اللغة الفرنسية. وهم حين يحرصون على الكتابة بها فذلك لاعتبارات عديدة:

- الإيحاء بأن الكتابة باللغة الفرنسية يرتبط بقضايا فيها كثير من الجرأة والتحدي.

- إعطاء انطباع عام بأن اللغة العربية لا تسعف في الخوض في قضايا من هذا القبيل، وكأنها لغة دينية مقدسة فقط.

- ضمان انتشار واسع لتلك الآراء الجريئة من خلال الصدى الإعلامي الذي تتركه في وسائل الإعلام في فرنسا خصوصا.

- التعبير عن انتماء لهوية ثقافية قديمة - جديدة تسمى الفرنكوفونية.

- السعي إلى الشهرة والمجد، والجري وراء كاميرا الإعلام الغربي.

- ضمان مكان في المنابر الإعلامية الغربية.

إنا ندرك جيدا أن كثيرا من تلك الأقلام إنما تجرأت على الإسلام لعلمها المسبق بالإقبال الذي تلقاه «آراؤهم» و«تحليلاتهم» و«نظرياتهم» في وسائل الإعلام الغربية. ويكتسي هذا الإقبال أهميته من كون هؤلاء المثقفين أبناء حقيقيين (جغرافيا وتاريخيا على الأقل) للثقافة العربية - الإسلامية؛ وبالتالي فهم أدرى بحقيقة تلك الثقافة أكثر من غيرهم.

ولعل كثيرا من المواطنين الغربيين (خصوصا العاديين جدا، أي

أولئك الذين لديهم مستوى متوسط في التعليم)، وهم يقبلون على تلك الآراء يعتقدون جازمين أنها تمثل الإسلام من حيث هو ممارسة دينية ومجموعة من الشعائر والفرائض. لقد كان حريا بهؤلاء أن يعبروا عن آرائهم تلك دون أن ينسبوها إلى الإسلام، ودون تقديم انطباع بأنها تنطلق من الشريعة الإسلامية أي من بعض قضاياه الفقهية مثلا. بعبارة أخرى، كان لا بد من وضع مسافة واضحة المعالم بين رأي الشرع والرأي الخاص؛ وذلك حتى لا تلتبس الأمور على المواطن الغربي العادي. لذا فمثل هذه الآراء المتصلة بالإسلام تمثل جزءا من مجمل القضايا المتصلة بالخطاب الإعلامي الغربي، نظرا للتأثير الذي تحدثه في تلك الوسائل الإعلامية في الغرب.

ولعل تلك الآراء تخدم مصالح الإعلام الغربي نفسه، ذلك أنها تزيل الحرج عن العاملين في ذلك الإعلام الذين يجدون مادة دسمة للتداول والنشر، وكذلك الغمز واللمز، على نطاق واسع جدا، وذلك باسم أناس آخرين؛ أي نقلا عن مثقفين يفهمون القضايا المرتبطة بالإسلام أكثر من الغربيين أنفسهم، أي الفئة الغربية المتخصصة في الإسلام.

لذا نعتقد أن الاطلاع على آراء هؤلاء المثقفين يدخل ضمن القضايا التي يثيرها الخطاب الإعلامي الغربي، نظرا للغة التي تم بها نشر تلك الآراء، ونظرا لطبيعة الجمهور الذي يتوجه إليه هؤلاء المثقفون، ونظراً للتأثير المتوقع على عموم الجمهور.

٧

توصيـــات عـــامـــة

إن تحليل الخطاب الإعلامي الغربي يتطلب دراسة متعددة المستويات لهذا الخطاب من كتابة وصورة وصوت وكاريكاتير.

وتختلف وسائل الإعلام من بلد غربي إلى آخر، ومن منبر إعلامي إلى آخر، غير أن تأثيرها في الرأي العام الغربي يظل كبيرا جدا بالنظر إلى حجم المتابعة اليومية المكثفة لتلك الوسائل.

ولعلنا ندرك جيدا الوقع النفسي للصورة على المشاهد، ولعلنا لا نغالي إذا اعتبرنا أن صورة واحدة بإمكانها أن تنوب عن مقالات وخطابات عديدة؛ ذلك أننا نعيش اليوم عصر الصورة بكل تجلياتها المادية، الملموسة والمحسوسة. بل إن هذه الصورة تحولت إلى ما يشبه الأيقونة. ونمثل لذلك بالتأثير الكبير الذي يتركه في النفوس والعقول والوجدان ذلك الاكتساح الإعلامي الذي تمثله الأغاني المصورة على شكل «فيديو كليب» لدرجة وصلت حد التخمة.

ونعتقد أن المالكين لوسائل الإعلام في الغرب من شركات ومقاولات وحكومات وأفراد إنما يسعون إلى تمرير خطابات معينة عن طريق الاستغلال الكبير لتلك الوسائل.

كل هذا يضعنا في خضم تجاذب إعلامي يجب علينا أن ندرك أبعاده الثقافية والحضارية الخطيرة جدا. كما يجب أن نستعد له بما أوتينا من إيمان وإرادة وعزيمة من أجل المساهمة والمشاركة والحضور الوازن والفعال.

إن حضورنا دليل على وعينا بأهمية الخطاب الإعلامي اليوم أكثر من أي وقت مضى. ولعلّ «تناسل» القنوات التلفزيونية الفضائية العربية والغربية جعلنا ندرك خطورة الصورة على نفسية المشاهد العربي، والشباب منه خصوصا، فتلك القنوات تخاطب في الغالب

الأعم الغرائز، وتثير الشهوات، وتبيع الوهم والسراب. فالأغاني المصورة تعطي الانطباع بأن عالمنا عبارة عن جزيرة استوائية، فيها الماء، والخضرة، والوجه المليح، والشعر الأشقر، والأرداف المكتنزة والممتلئة... وأن همنا اليومي في العالم العربي ينحصر في الشكوى من الحبيب أو إليه، وأن المعشوق يقابلنا بالصد والهجران، لدرجة تحول فيها المشاهد العربي وكأنه كومة من العقد النفسية والعاطفية، وخزان من المكبوتات المجهضة. إننا أمام صورة نمطية أفسدت الذوق العام، وقتلت الفن، ووأدت الإبداع!

إن هذا النوع من القنوات التي تذيع صور الأجساد العارية صباح مساء، وتعذب المشاهد العربي بأصوات هي أقرب إلى النهيق والنعيق منها إلى الغناء، لا تعبر عن طموحات الشباب العربي ولا عن تطلعاته ولا عن همومه، بقدر ما تثير فيه الغرائز والشهوات، وتشجعه على الرذيلة والفساد؛ وهو ما يضع تلك القنوات أمام مسئوليات أخلاقية كبرى في كل ما تبثه من صور لا ترتبط بالضرورة بالواقع في بعده الواقعي.

وحين نبدي الملاحظات أعلاه فلأننا نطمح إلى الرفع من مستوى قنواتنا الفضائية العربية، ولسنا هنا بصدد الدعوة إلى فرض وصاية أخلاقية لأن غرضنا هو الارتقاء بمضمون منتوجنا الإعلامي حتى يكون حضوره فعالا وناجعا. ثم لا ننسى التذكير بأن إقبال المشاهد العربي على ذلك النوع من القنوات هو الذي يشجع على تناسلها بهذا الشكل الفظيع. فنحن أمام قانون العرض والطلب في المنطق التجاري. فالمشاهد زبون يستهلك مادة تلفزيونية مثلا، وكلما ازداد إقباله على ذلك النوع من القنوات ارتفعت حمى المنافسة بينها من أجل كسب رضا المشتري/ المشاهد.

ولكن ما علاقة هذا كله بموضوع هذا الكتاب المتواضع؟ إننا نختصر الجواب في هذه الجملة: إن هذه القنوات العربية تحدث خللا كبيرا على مستوى الفهم والاستيعاب لدى المشاهد الغربي. فهي تكاد لا

تقدم له شيئا عن الإسلام، بل ربما تعطي انطباعا عن صورة مغايرة تماما عن الإسلام كما يتداولها الإعلام الغربي. كما أن قنواتنا العربية هذه لا تتحمس كثيرا لمناقشة هذا الموضوع من خلال برامج قارة تخصصها لهذه القضية الشائكة. ولكن ألا يحق لهذه القنوات العربية أن تبدي وجهة نظر فيما يعرفه العالم من أحداث خطيرة؟ ولماذا تصر في الغالب الأعم على تجنب الخوض في السياسة والثقافة والإعلام والفكر والإبداع؟ ولماذا تصبح بعض النماذج «الفنية» و«الرياضية» بمثابة «القدوة الحسنة» من أجل الوصول إلى الشهرة والمجد؟.

وحين نعود إلى مسألة الإسلام وصلته بوسائل الإعلام في الغرب، فإننا نقترح اعتماد إستراتيجية كبرى تضمن للفكر الإسلامي الوسطي حضوراً إيجابيا في الساحة الإعلامية العالمية. وتقوم هذه الخطة على التوجهات العامة التالية:

1- المتابعة اليومية الحثيثة لكل ما يصدر عن الإسلام في وسائل الإعلام الغربية. وهذا يتطلب إنشاء «مرصد»، الهدف منه جمع المادة الإعلامية، وتصنيفها، وتحليلها، ودراستها، وتقديمها لجهات مختصة تكون مهمتها الرد والتعليق المباشر إن أمكن ذلك، عبر قنوات (ليست بالضرورة تلفزيونية) فعّالة وناجعة.

2- إنشاء «بنك للمعلومات» حول القضايا التي تثار باسم الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، والقيام بعمليات إحصاء لمدى صحة ارتباط تلك القضايا بالإسلام.

3- تكوين مركز إعلامي يكون هدفه الأساسي ربط الاتصال المباشر بالمحطات التلفزيونية الغربية: المحلية، والفضائية، وتلك التي تبث عبر الإنترنت، والتدخل لدى المسئولين عنها في كل ما يذاع حول الإسلام في الغرب. ولا يخفى دور الصداقات الشخصية والزمالة المهنية في ربط جسور الحوار بين المهتمين بشئون الإعلام في الشرق والغرب. ويمكن أن يحدث هذا بعيدا عن الصخب الإعلامي في غياب

حوار، قوامه المودة والصداقة والإخاء بين بني البشر.

4- ربط الصلة بأولئك المثقفين العرب المسلمين وعموم المسلمين الذي فضلوا العيش والاستقرار في الغرب. فكثير منهم ينسبون قضايا للإسلام في وسائل الإعلام الغربية، وما هي منه في شيء. لذا ينبغي تنبيههم إلى الزلات التي يرتكبونها، عن جهل أو قصد، وهم يدعون معرفة كافية بالإسلام في جانبه التشريعي أو الفقهي أو التاريخي أو العقدي أو غيره.

5- ضرورة إتقان جملة من اللغات الأوروبية، وذلك من أجل تحليل النصوص بعد جمعها انطلاقا من لغاتها الأصلية الغربية.

6- تشجيع المثقفين المهتمين بقضايا الإسلام والإعلام في الغرب على نشر أبحاثهم ودراساتهم باللغات الأجنبية؛ وذلك لكي ينخرطوا في حوار مباشر مع أهل الغرب، من أجل تصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة حول الإسلام في الغرب عموما.

7- تنظيم لقاءات دورية مع بعض المالكين لوسائل الإعلام الغربية الراغبين في تقديم صورة موضوعية عن الإسلام في الغرب (وما أكثرهم)، وتشجيع التواصل معهم من خلال تبادل البرامج والخبرات والتجارب.

8- إطلاق قناة فضائية عربية إسلامية (متعددة اللغات) تخاطب الرأي العام الغربي، وتعرف بالإسلام دين الوسطية والسلم والسلام والمحبة والعلم والأخلاق... وتبتعد عن النعرات الطائفية والنزعات المحلية والحزازات الشخصية والعرقية. كما ينبغي أن تسعى تلك القناة إلى تقديم خدمة إعلامية متكاملة لوكالات الأنباء والمؤسسات الإعلامية المهتمة بموضوع الإسلام في الغرب. هذه القناة تكون اللبنة الأولى في سبيل تأسيس مؤسسة إعلامية متكاملة.

9- اعتماد الحوار الهادئ الرصين منهجا في الحديث إلى وسائل الإعلام الغربية، والابتعاد عن أشكال الخطاب المنفعل والقدحي واللاذع الذي يفسد القضايا، وينفر النفوس.

10- الإسلام دين وثقافة وحضارة وسلوك وإبداع وقيم إنسانية نبيلة؛ فليكن سلوكنا - نحن المسلمين أولا - سلوكا راقيا في الخطاب والهندام واللغة والشكل والمظهر والتصرف والمعاملة.

إن هذه الإستراتيجية الإعلامية التي ندعو إليها تجعلنا حاضرين في الساحة الإعلامية الغربية. وحتى يكون هذا الحضور أكثر فعالية، فإننا ندعو إلى مخاطبة الرأي العام الغربي مباشرة عن طريق الخطاب، سواء كان مرئيا أو مسموعا أو مكتوبا. ومن أجل تحقيق هذا الغرض نعتبر إنشاء مؤسسة إعلامية تتضمن دار نشر ومحطة إذاعية وأخرى فضائية وأخرى على الإنترنت مسألة ضرورية.

وننبه على أن المطلوب من هذه المؤسسة تكوين الباحثين المهتمين بموضوع الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، وتدريبهم على الاستغلال الحسن لتقنيات التواصل الحديثة التي يعتمد عليها الإعلام الغربي اليوم. ونفضل أن يكون هؤلاء الباحثون قد عاشوا في الغرب مدة من الزمن، إما لأجل الدراسة أو لأجل التدريب أو العمل... فهؤلاء يمتلكون القدرة على استيعاب جملة من الإيحاءات والإشارات التي ترد في الخطاب الإعلامي الغربي، كما يستطيعون فهم العقلية الغربية في حديثها عن الإسلام والمسلمين. فالبيئة الاجتماعية والثقافية والنفسية تساهم كثيرا في تشكيل كثير من التصورات والرؤى حول موضوع الإسلام في الغرب.

ولا ننسى أن نتوجه بخطابنا هذا إلى أبناء جلدتنا الذين يعيشون في الغرب اليوم، وذلك عن طريق توعيتهم بدورهم في إطار التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب. ونكاد لا نغالي إذا قلنا إن حضورهم البدني في الغرب هو شكل من أشكال الحوار، وإن كان صامتا أو

جامدا. وننبه هؤلاء على أهمية تطابق سلوكهم مع تعاليم الإسلام. كما ندعوهم (خاصة العامة منهم) إلى ضرورة تجنب الحديث إلى وسائل الإعلام الغربية كيفما اتفق.

ونتذكر هنا - على سبيل المثال فقط - تصريحا أدلى به مهاجر عربي في هولندا، يعمل جزارا في أحد المتاجر الإسلامية الكبرى هناك. فحينما سُئل عن رأيه حول الرسوم الكاريكاتيرية الدانماركية المسيئة للرسول الكريم، كان جوابه كالتالي: «إن هذا الشريط حول رسول الإسلام لا يمكن السماح ببثه إطلاقا».

فمثل هذا التصريح يعطي انطباعا للمشاهد الغربي أن الإنسان العربي الذي يعيش في الغرب يدافع عن قضية يجهل طبيعتها ومضمونها؛ فشتان ما بين الرسوم الكاريكاتيرية وبين الشريط السينمائي. وهنا تلميح إلى المستوى الثقافي للإنسان العربي في الغرب. فإذا كان يجهل قضاياه فكيف حال قضايا أخرى تتصل بالغرب بشكل مباشر؟

كما أن التركيز على مهنة ذلك العربي يحمل في ثناياه كثيرا من الدلالات المسكوت عنها، ولكن تفضحها المهنة. فالجزار معناه السكين والدم والذبح والقتل، أما منظر الدم على الوزرة فيجعل الصورة الدموية أكثر مأساوية. وحين نذكر السكين وما يتصل به من آلات تقطيع حادة يذهب لا وعينا مباشرة إلى العنف والبطش والقهر والإجرام والتنكيل. وتبدو المسافة قصيرة جدا بين السكين والسيف. فالجزار العربي المسلم الحامل للسكين يذكر بالصورة النمطية في الإعلام الغربي عن الإنسان المسلم الحامل للسيف!!.

فصورة الجزار تذكر المشاهد الغربي بصورة دموية عن الإسلام. وحينما يكون كلام الجزار ضحلا يتعمق الانطباع بطبيعة التفكير المحدودة والمتدنية التي تمير العقل العربي - الإسلامي.

فإذا كان ذلك الجزار أو غيره «مسرورا» بالظهور على قناة تلفزيونية مثلا، فصورته التي أعجبته هو شخصيا أساءت إلى الآلاف من المشاهدين الذين ينتظر بعضهم مجرد لقطة واحدة ليزداد حنقهم على الإسلام والمسلمين.

وتعطي مثل هذه الصورة الفرصة لزعامات اليمين المتطرف في أوروبا لكي يتعمدوا الخلط بين الإسلام والإرهاب، وعدم الاستقرار، والقلق، والخوف، والهجرة...

وعلينا أخيرا أن نخاطب الرأي العام الغربي بلغته التي يفهمها أولا، وبالكلمة الطيبة والسلوك الحسن، والأخلاق النبيلة، وبفضل تصرفات تطابق تعاليم الإسلام، وكذلك معاملات هي من صميم الدين الحنيف.

وعلينا أن نخشى على أنفسنا من سلوك لا يمت إلى الإسلام بصلة، وأن نتجنب إطلاق الحديث على عواهنه في المنابر الإعلامية المختلفة؛ ذلك أن السعي إلى الشهرة والمجد والنجاح المادي والمعنوي والأدبي لا ينبغي أن يكون حافزا يصل بنا حد الجنون، ويدفع بنا إلى التصرف بطريقة فيها كثير من الحيلة، والغدر، والخداع... وقليل من المروءة، والعفة، والنبل، والشهامة.

إن هذه الإستراتيجية يمكن أن تكون موضوعة على المدى البعيد. ويمكن تحقيقها شريطة إخلاص النية، والشروع بعزيمة، وحزم وإرادة، وإصرار. ويجب أن يكون عملنا خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى.

خاتمة

إن الحديث عن الخطاب الإعلامي الغربي في علاقته بموضوع الإسلام يبدو متشعبا، ويتطلب صبرا وأناة وطول نفس في المتابعة والتصنيف والدراسة والتحليل.

ومما يزيد من صعوبة البحث في هذا الموضوع التطور التقني الهائل الذي حصل في طريقة الخدمة الإعلامية لتلك الوسائل. فالبث الرقمي، والباقات الإذاعية والتلفزيونية، والمواقع الإلكترونية، والإخراج الجيد للصحف والجرائد والمجلات والملاحق المجانية.. كلها تقنيات جديدة تشجع الجمهور الغربي على الإقبال عليها بشكل مكثف، خصوصا أن ذلك الجمهور مولع بالمطالعة والقراءة في الساحات والأماكن العمومية، وفي وسائل النقل والمواصلات المختلفة.

فمن حيث الشكل تتميز وسائل الإعلام الغربية بالجودة: صوتا وصورة وكتابة، وهو ما يشكل تحديا أمام وسائل أخرى تريد أن تخوض غمار المنافسة، كما يشكل تحديا أمام أي معالجة أو دراسة لا تأخذ بعين الاعتبار مسألة المظهر هذه، وإن كانت شكلية من الناحية المنهجية.

- ونظرا لتوفر تلك الوسائل على إمكانيات تقنية ومادية وبشرية هائلة، فإنها استطاعت أن تكون دائمة الحضور في مواقع الأحداث، مهما بعدت المسافات. فهذه الوسائل تتميز، بالإضافة إلى الجودة، بالفعالية؛ فهي جاهزة للبث في أي لحظة وحين، ومن أي نقطة تغطية، نظرا لشبكة المراسلين التي تتوفر عليها.

وتمتلك هذه الوسائل قدرة هائلة على الاستفادة من خدمات الباحثين والخبراء وتحليلاتهم؛ وهو ما يجعل خطابها مؤثرا في الرأي العام الغربي.

فهذه الصفات: الجودة، والفعالية، والقيمة، إلى جانب مزايا أخرى، تجعل وسائل الإعلام الغربية على العموم ذات تأثير كبير

وحضور قوي، ومن خلال حصولها على نسبة مشاهدة عالية، ومتابعة متواصلة لبرامجها المختلفة.

• وإذا كانت تلك الوسائل على هذا المستوى الراقي في البث والخدمة، فإننا ننتظر منها معالجة خاصة لموضوع الإسلام في الغرب، وذلك لاعتبارات عديدة نجمل بعضها في العناصر التالية:

- طبيعة العلاقة «المتوترة» التي تجمع بين المسيحية والإسلام من الناحية الدينية الوجودية على الأقل، فكل ديانة تسعى إلى أن تكون حاملة للكلمة الطيبة. فإذا كانت المسيحية تعتبر نفسها مكملة لليهودية، وناسخة لكثير من تعاليم شريعة موسى عليه السلام، فإن الإسلام جاء مكملا للرسالة الإلهية للبشرية قاطبة؛ وهو ما يعني تجاوزا، ضمنيا وصريحا، للمسيحية بالمنطق نفسه الذي تعاملت به المسيحية مع اليهودية.

- الحضور الكبير للعنصر العربي الإسلامي في بلاد الغرب؛ وهو ما أوجد احتكاكا مباشرا من حيث العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الشرق والغرب.

- العلاقات التاريخية المتشابكة التي طبعت مسيرة الغرب في «تواصله» مع الشرق، من خلال الحروب الصليبية، وحملات التبشير والاستعمار، وموجات التنصير، والدور الأساسي الذي قام به كثير من المستشرقين والمستشرقين الجدد، وهو دور لا يتصف بالموضوعية والنزاهة في جميع المناسبات والظروف والأحوال.

- طبيعة الغرب القلقة على مستقبل العلاقة التي تربطه بالشرق وغيره من الأطراف أو الهوامش في صلتها بفكرة المركز، أي الغرب الحريص على دوام مركزيته أمام «بداية نشوء وعي» بضرورة تجاوز هذه الثنائية الثقافية، وكذا ثنائيات أخرى مماثلة تقوم على زيف منهجي وموضوعي، وتترجم حالة من القلق والصراع، من قبيل: الشمال والجنوب، والأنا والآخر، والذات والموضوع.

- محورية فكرة الصراع في الثقافة الغربية؛ وهو ما يجعل هذا الغرب لا يحيا إلا بوجود عدو يتصارع معه. فبعد الحرب الباردة، وحرب النجوم، وانهيار جدار برلين، ونهاية الشيوعية، وموت الدكتاتوريات... كان لا بد من البحث عن عدو جديد، وهو الإسلام اليوم، وإن كان الدارس يأسف لهذا الحضور الإشكالي لحقيقة الصراع في فكر الغرب، ويتمنى أن تقوم حركة تصحيحية في هذا الاتجاه.

- الأزمة الوجودية التي يعرفها الغرب حاليا، وذلك نتيجة حتمية لانهيار نظام الأخلاق. ويتجلى ذلك في مظاهر عديدة، منها تفكك الأسرة، وطغيان الأنانية، والسعي إلى مزيد من الربح والكسب، وانحسار الروحانيات التقليدية، وظهور ممارسات دينية وضعية جديدة. هذه الأزمة تتطلب من أهل الشرق حزما وعزما على التواصل مع هذا الغرب القلق والمضطرب في عمومه، ومساعدته من أجل الخروج من حالة الخوف تلك.

- العداء الذي يكنه بعض أهل الغرب للإسلام لدرجة تصل إلى الهوس. وتعود هذه الحالة في جزء كبير منها إلى رواسب ثقافية ترتبط بالتربية داخل المجتمعات الغربية عموما. لذا ينبغي معالجة هذه الحالة المرضية عن طريق الحضور الوازن للمدافعين عن الإسلام، والمؤمنين برسالته الإنسانية السمحة.

- البحث في الجذور الثقافية لعداء الغرب للإسلام والمسلمين عموما. ويتطلب منا هذا التقصي الرجوع إلى نظام التربية في الغرب، والاطلاع على المناهج الدراسية والتعليمية المعتمدة في كثير من البلدان الأوروبية، وتحليل أدبيات كثير من المنظمات، والأحزاب، والهيئات السياسية والحقوقية والنقابية، والتنقيب عن رواسب ذلك العداء، وإن تطلب منا ذلك الرجوع إلى الماضي البعيد، أو استحضار بعض الممارسات غير الأخلاقية التي صدرت عن بعض المنتمين إلى الإسلام وثقافته. فنحن أمام ورش كبير للتحليل النفسي للعلاقة التي ربطت الغرب بالشرق.

ويكشف لنا موضوع «الإسلام في الغرب» عن الدور الوازن الذي يقوم به المثقف داخل المجتمعات الغربية، قديما وحديثا. فالمفكر في البلدان الأوروبية يقترح كثيرا من النظريات، ويبسط جملة من الآراء، ويستطيع أن يهدئ الخواطر، كما يمكن أن يهيج العواطف، ويثير الحساسيات، ويشغل الرأي العام بتحذيراته الموغلة في التشاؤم، أو فرضياته التي تقود إلى توقعات إيجابية... فالمثقف صاحب دور ريادي داخل المجتمعات الغربية، وهو لا يحيا في «برجه العاجي» كما جرت العادة قديما، وينظر إلى نبض المجتمع من فوق، إنه منخرط في مؤسسات المجتمع الذي يحيا فيه، ويساهم في النشاط العام بفضل حضوره الدائم. ولا عجب في المسألة، فالدور الريادي يفرض على المثقف هذا الحضور، وهذا تقليد غربي قديم. وهو يسعى - من خلال ذلك الحضور - إلى تأمين قدر كاف من المصداقية لبحوثه وأعماله ودراساته ومحاضراته في كثير من المنابر الإعلامية والأكاديمية.

ولعل المسألة الثقافية حينما تؤخذ في هذا البعد الذي يجمع بين دور المثقف من جهة، وحاجته إلى الحضور الإيجابي من جهة أخرى، تضعنا وكأننا أمام «صفقة» تمت المصادقة عليها ضمنيا بين المثقف والمجتمع.

فنحن أمام دور جديد للمثقف داخل المجتمعات الغربية، وهو دور يرتبط بضرورة الحضورالفعال والمساهمة الإيجابية، وكذلك بالرغبة الشخصية في ضمان مكانة فكرية داخل تلك المجتمعات. ولا تخفى النتائج العكسية لمثل هذا التوجه الجديد لدى كثير من المثقفين في الغرب اليوم. ولعل العلاقة الوطيدة التي تربط كثيرا منهم بوسائل الإعلام لغرض الاستفادة منها يمكن أن تصلح دليلا على هذا التوجه الفكري الجديد. ومما يغذي توجها من هذا القبيل المنافسة المحتدمة بين المثقفين اليوم من أجل الوصول إلى إحداث قدر أكبر من التأثير أي الحضور الدائم في المجتمعات التي يحيون فيها من خلال وسائل الإعلام مثلا، إلى جانب طرق أخرى مثل النشر وإلقاء المحاضرات، والمساهمة في جمعيات مدنية أو حزبية أو نقابية.

وحينما نتحدث عن الدور فنحن نقصد التأثير الذي يتركه المثقف في الغرب اليوم، سلبا أو إيجابا. فعلى إثر الأحداث التي شهدتها فرنسا في شتاء 2005 (انتفاضة الشباب على قانون الشغل الجديد) قرأنا خطابا لكثير من المثقفين في فرنسا يكشف عن «حقد واضح» لهؤلاء المثقفين على أولئك الشباب ليس فقط من حيث الانتماء الديني لدى الشباب الغاضب، وإن كانت المسألة فيها كثير من المبالغة كما أوضحنا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب المتواضع، ولكن بالنظر إلى كون هؤلاء «الغاضبين» شبابا أولا وأخيرا. ولعل هذا الموقف السلبي الذي عبر عنه كثير من هؤلاء المثقفين نحو الشباب أدخل المجتمع الفرنسي (والغربي عامة) في صراع «جديد» يزيد من صعوبة الأوضاع في فرنسا، ونقصد العلاقة المتوترة بين أولئك المثقفين وأولئك الشباب. وبعبارة أخرى، يمكن الحديث عن خلاف قديم «متجدد» بين جيليْن اثنين: جيل الرواد المثقفين وجيل الأبناء المتمردين، أي أننا أمام صراع بين الأجيال: بين الكهول والشباب.

ويعبر خطاب كثير من المثقفين عن موقفهم العدائي نحو أولئك الشباب من خلال جملة من النعوت والصفات التي «حللوا» بها «انتفاضة الشباب»؛ فهم في نظر أولئك المثقفين مجموعة من الأشخاص الذين يكنون عداء مكشوفا لقيم الحداثة والديمقراطية في الغرب اليوم، وهم شرذمة من «الأميين»؛ فهم لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، أما لغتهم فلا تحترم قواعد النحو التقليدي، وهم ينتمون إلى تلك الفئات الشعبية العريضة التي تكون قاعدة المجتمع. وهذا الوصف تعبير عن تلك النظرة التقليدية للمجتمع الغربي عموما الذي يشبه في تركيبته البشرية ذلك الشكل الهرمي الذي يضع المثقف في القمة والشباب في الحضيض، لأنه جزء مما يسمى «الطبقات الشعبية».

ونحن ندرك جيدا أن خطابا من هذا القبيل يزيد الهوة اتساعا بين فئة مثقفة وفئة شابة متمردة على كثير من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل المجتمعات الغربية اليوم.

فالمثقف - حسب هذا المعنى - يفكر ويتأمل ويقترح كثيرا من الحلول، أما الشاب فهو ذلك الفرد المتمرد على كل شيء، وهو ذلك الفرد الذي يسعى إلى الحصول على أي شيء دون أدنى جهد.

وتصبح نظرة المثقف مشحونة بعداء أكثر حينما يكون المستهدف هو ذلك الشاب المنحدر من أصول ثقافيةً عربية إسلامية أو إفريقية مثلا. ففي هذه الحالة تصبح الثقافة الأصلية علامة دالة على التخلف والتقوقع والانغلاق، وبذلك يعود ذلك الحديث عن الأقليات إلى الواجهة السياسية (الأمنية) مدعوما بموقف ثقافي يتزعمه كثير من المفكرين الغربيين اليوم.

وما الحرب التي أعلنتها دوائر في الولايات المتحدة الأمريكية على «الإرهاب» إلا دليل على هذا التوجه الفكري الجديد؛ فكثير من المثقفين ساندوا إعلان الحرب هذا، وسوغوا سقوط الضحايا البشرية، وعللوا الدمار والخراب الذي حصل في كثير من البلدان، وأوجدوا مصطلحات جديدة تقلب كثيرا من المفاهيم؛ فالمقاومة مهما كانت شرعية وقانونية وأخلاقية تصبح إرهابا، والعدوان على البلدان والشعوب باسم «الحرب على الإرهاب» يصبح «دفاعا عن النفس»، ويتحول الخلاف إلى اختلاف، والنزاع إلى صراع، والمعركة إلى حرب.

علاوة على هذا كله، يتضح أن المثقف في الغرب اليوم عموما يميل كثيرا إلى التقليل من شأن الفئات الاجتماعية انطلاقا من الجذور الثقافية التي تعود إليها كثير من الأقليات التي تكون المجتمع الغربي اليوم. وأصبحت تلك الأقليات تسمى «مرئية»، أي يمكن الاحتكاك بها في الحياة اليومية، ومع ذلك لا تعيرها تلك الفئة المثقفة اهتماما كبيرا، ولا توليها عناية خاصة في الدراسة والتحليل. فالمثقف في الغرب لا يرغب في الخوض في قضايا تتصل بتلك الأقليات خشية السقوط في خطاب شعبي، ومخافة أن تتدنى مكانته داخل المجتمع حينما يفكر

في أن «ينزل» إلى ذلك المستوى «الشعبوي» (إن صح التعبير). كل هذا يكشف عن نوع من الكبرياء لدى هذا المثقف، وكذلك عن نوع من «الاحتقار» الذي يعامل به فئات اجتماعية، بدعوى اختلافها الثقافي والفكري، وبالتالي صعوبة اندماجها داخل المجتمعات الغربية ذات القيم الثقافية المسيحية - اليهودية أساسا.

وحينما تكون علاقة المثقف في الغرب بفئة اجتماعية تتنفس الهواء نفسه الذي يستنشقه في حياته اليومية العادية بالشكل المتوتر والمضطرب، فلا عجب حينما يكون هذا المثقف نفسه حاملا لخطاب فيه عداء واضح لكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين. فموقفه السلبي إزاء الشباب الأوروبي مثلا نابع من علاقة تلك الفئة الاجتماعية، في الغالب الأعم، بالأصول الثقافية التي تنتمي إليها، وهي أصول ترتبط بحضور واضح لكثير من الممارسات الدينية الإسلامية. لذا يتم الخلط، عن قصد وسبق إصرار في كثير من الأحيان، بين أعمال الفوضى والشغب في ضواحي المدن الأوروبية الكبرى وبين الأصول الثقافية - أي الدينية - لأولئك المشاغبين. وتتعقد الأمور حينما يصبح الإسلام رديفا للتخريب والاحتجاج والتمرد، أي أن الدين يتحول إلى عنصر مثير للقلق من الناحية الاجتماعية. وحينما يصدر خطاب بهذا المعنى عن بعض المثقفين المرموقين في الغرب يصبح ذلك الاتهام يكتسي «أهمية ومصداقية» في الخطاب الإعلامي الغربي. وينتج عن هذا كله جملة من الصفات «المرادفة» للإسلام في الغرب، من قبيل «القلق الاجتماعي»، و«الخوف»، و«الهلع»، و«الفزع»، و«الكابوس المزعج»، و«الشبح».

فموقف بعض المثقفين السلبي من فئة الشباب في الغرب نابع في كثير من الأحوال من صلة أولئك الشباب بالإسلام. ولا يخفى مدى التجني على الدين الحنيف وعلى أولئك الشباب في حكم عام من هذا القبيل؛ ذلك أن الأمور تبدو وكأن كل شاب غاضب في فرنسا مثلا هو مسلم بالضرورة، أو أنه ينحدر من أصول ثقافية ودينية إسلامية.

ويعني هذا التعميم أن فرنسا لا تعرف إلا الشباب المنحدر من المغرب أو الجزائر أو تونس فقط. كما يعني ذلك أن هذه الفئة تمارس الإسلام بشكل طبيعي وعادي داخل المجتمع الفرنسي. والقصد من هذا الخلط تشويه ممارسات اجتماعية، وربطها بالإسلام مباشرة، وإثارة نوازع عنصرية ضد الشباب الغاضب، وتحويل الأنظار والاهتمام عن مطالب الشباب الحقيقية، وتتجلى في الحق في العيش الكريم، إلى قضايا ربما يجهلها أولئك الشباب أنفسهم؛ لأنها تدخل في مجال ثقافي لا يمتلكون الأدوات الكافية لاستيعاب مضامينه، وفهم مقاصده القريبة والمتوسطة والبعيدة.

وتوضح هذه العناصر وغيرها مدى الحيوية التي تميز أي دراسة تتصل بموضوع الإسلام في وسائل الإعلام الغربية.

وعلينا أن نكون حاضرين في هذه الساحة الإعلامية الكبرى، لما لها من خطورة في تشكيل الرأي العام وتوجيهه والتأثير عليه.

ومع هذا كله، ندرك جيدا أهمية وجود سند قوي لنا في الغرب، ويتجلى في كثير من أبناء الغرب الذين لا يبالون بصراع قائم بين الشرق والغرب، ولا يرغبون في الحديث عن فكرة الصراع أصلا. وهم يرغبون فقط في الانخراط في حوار هادئ، ورصين ورزين، مع الشرق وأهله.

فماذا ننتظر لكي نقابل بالأحضان أيادي بريئة، ممدودة لنا، كلها ود ومحبة، وهي تعبر عن رغبة حقيقية في التعاون من أجل صلاح البشرية جمعاء.

وبما أن الإسلام دين الحوار والسلم والتسامح، فإننا لن نتردد - لحظة واحدة - في مخاطبة هؤلاء، ومد جسور التعاون والمحبة والأخوة معهم باسم المبادئ الدينية السمحة التي ربانا عليها ديننا الحنيف، تلك المبادئ التي تقوم على مخاطبة الإنسان في بعده الإنساني.

كما أننا لن نتردد لحظة واحدة في مخاطبة تلك الفئة من أهل الغرب التي درجت على التعامل معنا بقسوة وكراهية واضحتين. وبما أن الإسلام يدعونا إلى مخاطبة الغير بالحكمة والموعظة الحسنة، فإننا مدعوون إلى حوار صعب، ويتطلب منا كثيرا من الصبر والأناة، وكذلك قدرا كبيرا من الود والحب والاحترام. وعلينا أن نكون في مستوى التحدي الحضاري الذي نواجهه اليوم. ويختلف وضعنا الثقافي الراهن عما كنا عليه إبان حملات الاستعمار. فنحن في وضع يسمح لنا باستغلال مكثف لتقنيات التواصل الحديثة بشكل يجعلنا قادرين على الدخول في حوار مباشر وبناء مع الغرب. ولكن علينا أن نعيد النظر في الطريقة التي نتعامل بها مع الآخر في قضية الحوار تلك. كما على الغرب أن يراجع كثيرا من آليات اشتغاله حول الإسلام والمسلمين عموما، ذلك أن هذا الغرب لم يتمكن بعد من إحداث قطيعة مع رواسب ثقافية وتاريخية واجتماعية تذكرنا بفترة الحروب الصليبية، أي حروب الديانات والحضارات.

فالمطلوب هو جهد مشترك من أجل إرساء قواعد جديدة في الحوار، بعيدا عن الآراء المسبقة، والتصورات الجاهزة، والخلفيات التي تتحكم كثيرا في لاوعينا الفردي والجماعي. وحين تتوفر النية الصالحة والإرادة الحقيقية يمكن لأهل الشرق أن يتعاملوا مع الغرب بقدر كبير من المحبة والاحترام، بالقدر نفسه الذي يبديه الغربيون للعرب والمسلمين. وحينها فقط يمكن لكثير من المقولات «الاصطناعية» أن تسقط من تلقاء نفسها، مثل الشرق والغرب. ويحل محلها تقدير واعتبار للإنسان في بعده الإنساني.

والله ولي التوفيق.

قائمة بأسماء بعض المراجع
التي يمكن الرجوع إليها في الموضوع

• المراجع باللغة العربية:

- إبراهيم محمد جواد: 2006، الصراع بين الغرب والإسلام، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

- أبو يعرب المرزوقي وحسن حنفي: 2003، النظر والعمل والمأزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن، دار الفكر. دمشق.

- أحمد عبدالحليم عطية: 2006، الأخلاق في الفكر العربي المعاصر، دراسة تحليلية للاتجاهات الحالية في الوطن العربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة.

- آن ماري شيمل: 2004، الشرق والغرب، حياتي الغرب - شرقية، المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.

- جلال أمين: 2004، عصر التشهير بالعرب والمسلمين، نحن والعالم بعد 11 سبتمبر 2001، دار الشروق. القاهرة.

- طارق البشري: 2003، العرب في مواجهة العدوان، مكتبة الأسرة/ الأهرام. القاهرة.

- طارق البشري: 2005، منهج النظر في النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامي، دار الشروق. القاهرة.

- حسن توركماني: 2003، الصراع المعلوماتي، دار الأولى للنشر والتوزيع. دمشق.

- جو كينشلو وشيرلي شتاينبرغ: 2005، التربية الخاطئة للغرب، كيف يشوه الإعلام الغربي صورة الإسلام، ترجمة: حسان بستاني، دار الساقي ومركز البابطين للترجمة.

- حسن عجمي: 2005. السوبر حداثة: علم الأفكار الممكنة، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام. بيروت.

- خلدون حسن النقيب: 2003. آراء في فقه التخلف، العرب والغرب في عصر العولمة، دار الساقي. بيروت/ لندن.

- فاضل الربيعي: 2005. ما بعد الاستشراق والاستعمار الجديد، دار رياض الريس للنشر والتوزيع. بيروت.

- عبدالقادر ياسين وآخرون: 2005، ثالوث الشر: النازية - الصهيونية - معاداة السامية. دار سطور. القاهرة.

- عبدالكريم بوفرة: 2003، حرب القيم.. قراءة في الخطاب الإعلامي الغربي بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. منشورات المجلس العلمي. وجدة (المغرب).

- تهامي العبدولي: 2004، أزمة المعرفة الدينية. دار البلد. دمشق.

- علاء الدين الأعرجي: 2004. أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفصل. دار كتابات. بيروت.

- علي حرب: 2005. أزمنة الحداثة الفائقة. الإصلاح - الإرهاب - الشراكة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/ بيروت.

- عمار حمادي: 2004. الأسس الثقافية للغرب. دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

- عمر عبيد حسنة: 2004. قوة الثقافة... لا ثقافة القوة. المكتب الإسلامي. بيروت.

- غالب كجك: 2005، قلق الغرب. دار الهادي للطباعة والنشر

والتوزيع. بيروت.

- رفيق حبيب: 2001، حضارة الوسط: نحو أصولية جديدة. دار الشروق. القاهرة.

- محمد عابد الجابري: 2005. في نقد الحاجة إلى الإصلاح. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.

- سعيد بن ناصر الغامدي: 2003. الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها. 3 أجزاء. دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع. جدة. المملكة العربية السعودية.

- زغلول النجار: 2003. الإسلام والغرب في كتابات الغربيين. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.

- صلاح جرار: 2004. زمان الوصل.. دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمان (الأردن) - بيروت (لبنان).

- طه عبدالرحمن: 2004. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء - بيروت.

- كريم أبو حلاوة: 2003. نحو عقل تواصلي. دار الأهالي. القاهرة.

- م. جمال عليان: 2005. الحفاظ على التراث الثقافي. سلسلة

عالم المعرفة 322. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

- مجموعة من الكتاب: 2002. الإسلام والغرب. سلسلة كتاب العربي 49. منشورات مجلة العربي. الكويت.

- محمد عابد الجابري: 2006. سلسلة مواقف 51. دار النشر المغربية. الدار البيضاء.

- عبدالوهاب المسيري: 2003. دفاع عن الإنسان. دراسات تطبيقية في النماذج المركبة. دار الشروق. القاهرة.

- مصطفى النيفر: 2004. الشرق والغرب... دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

- المهدي بن عبود: طبعة 2005. الأعمال الكاملة: رصد الخاطر. جمع وترتيب ومراجعة: محمد الدماغ الرحالي. الجزء الأول: أزمة الحضارة المعاصرة. مطابع أمبريال. الرباط.

- ياسر سليمان: 2003. اللغة العربية والهوية القطرية الوطنية. دراسة في الأيديولوجيا. الناشر غير مذكور.

- **بعض المراجع بالفرنسية والإنجليزية.**

نقترح فيما يلي نماذج لبعض المؤلفات التي صدرت أخيرا حول بعض القضايا التي يعرفها الشرق والغرب حاليا. وكنا نود كثيرا أن نخصص دراسة نقدية لقائمة المراجع هذه، وذلك نظرا لأهمية كثير من الآراء الواردة في مثل هذه الكتابات. ونتمنى أن نقوم بهذا العمل في القريب العاجل إن شاء الله.

-Alexandre Adler: 2005. Rendez-vous avec L'Islam. Editions Grasset. Paris.

- La Voie humaine. Pour une nouvelle social-démocratie. Editions Fayard. Paris.

- Nicolas Bancel، Pascal Blanchard et Sandrine Lemaire: 2005. (Sous la direction de). La fracture coloniale. La France au prisme de l'héritage colonial. Editions La Découverte. Paris.

- Benjamin Barber; 2004. L'Empire de la peur. Terrorisme، guerre، démocratie. Editions Fayard. Paris.

- Jean-Francois Bayat: 2004. Le Gouvernement du Monde. Editions Fayard. Paris.

- Esther Benbassa: 2004. La France face a ses minorities. Editions Mille et Une Nuits. Paris.

- Ghaleb Bencheikh : 2005. La laïcité au regard du Coran. Editions Presses de la Renaissance. Paris.

- Fethi Benslama : 2005. La psychanalyse a l'epreuve de l'Islam. Editions Flammarion. Paris.

- Rachid Benzine : 2004. Les Nouveaux penseurs de l'Islam. Editions Albin Michel. Paris.

- Pierre Birnbaum : 2004. Geographie de l'Espoir. L'Exil، les Lumieres، la Desassimilation. Editions Gallimard. Paris.

– Olivier Boulnois (sous la direction de) : 2005. Je crois en un seul Dieu. Editions PUF. Paris.

– Gerard Challiand : 2005. Guerres et Civilisations. Editions Odile Jacob. Paris.

– Melk Chebel : 2004. Manifeste pour un Islam des Lumieres. 27 propositions pour reformer l'Islam. Editions Hachette. Paris.

– Daniel Cohen : 2005. La mondialisation et ses ennemis. Editions Grasset. Paris.

– Noam Chomsky : 2004. Hegemony ou survival. America's Quest For Global Dominance. Penguin. New York.

– Naom Chomsky : 2004. Dominer le monde our sauver la planete? L'Amerique en quete d'hegemonie mondiale. Editions Fayard. Paris.

– Francois de Closets : 2004. Ne dites pas a Dieu ce qu'il doit faire. Editions du Seuil. Paris.

– Georges Corm : 2005. Orient-Occident : la fracture imaginaire. Editions La Decouverte. Paris.

– Georges Corm : 2006. La question religieuse au 21eme siecle. Editions La Decouverte. Paris.

– Regis Debray : 2006. Supplique aux nouveaux progressistes du 21eme siecle. Editions Gallimard. Paris.

- Marie Delcambre : 2005. Enquetes sur l'Islam. Editions Desclee De Bouwer. Paris.

- Hichem Djait : 2004. La crise de la culture musulmane. Editions Fayard. Paris.

- Thomas Deltombe : 2006. L'Islam imaginaire. La construction mediatique de l'islamophobie en France 1975-2005. Editions La Decouverte. Paris.

- Yared Diamond : 2005. Collapse. How Societies Choose to Fail or Succeed. Viking Press.

- Bruno Dumezil : 2006. Les raciness chretiennes de l'Europe. Conversion et liberte dans les róyaumes barbares. Editions Fayard. Paris.

- Alphonse Dupront; 2006. Qu'est-ce que les Lumieres. Editions Folio. Paris.

- Bruno Etienne : 2004. Islam. Les questions qui fachent. Editions Gallimard. Paris.

- Sebastien Fath : 2004. Dieu benisse l'Amerique. La religion de la Maison Blanche. Editions Seuil. Paris.

- Sebastien Fath : 2004. Militants de la Bible aux Etats-Unis. Evangelistes et fundamentalists du Sud. Editions Autrement. Paris.

- Luc Ferry : 1996. L'Homme-Dieu. Editions Grasset. Paris.

- Luc Ferry: 2006. Apprendre a vivre. Traite de philosophie a l'usage des jeunes generations. Editions Plon. Paris.

- Luc Ferry et Marcel Gauchet : 2004. Le religieux après la religion. Editions Grasset. Paris.

- Alain Finkielkaut : 2005. Nous autres modernes. Quatre lecons. Editions Ellipses. Paris.

- Robert Fisk : 2005. La Grande Guerre pour la Civilisation. L'Occident a la conquete du Moyen-Orient (1970-2005). Editions La Decouverte. Paris.

- Alain Frachon et Daniel Verret : 2004. L'Amerique messianique. Les guerres des neoconservateurs. Editions du Seuil. Paris.

-Abdel-Rahmane Ghandour : 2005. Jihad humanitaire. Editions Flammarion. Paris.

- Rene Girard : 2004. Les origins de la culture. Editions Desclee De Bouwer. Paris.

- Andre Gluksmann; 2006. Une rage d'enfant. Editions Plon. Paris.

-Jack Goody : 2006. L'Islam en Europe. Editions La Decouverte. Paris.

- Martine Gozlan : 2005. Le Desir d'Islam. Editions Grasset. Paris.

- Jean-Claude Guillebaud : 2005. La tyrannie du plaisir. Editions Points/ Seuil. Paris.

- Jean-Claude Guillebaud: 2005. La force de conviction. A quoi pouvons-nous croire? Editions Seuil. Paris.

- Joseph Health et Andrew Potter : 2006. Revolte consommé. Le mythe de la contre-culture. Editions Naïve. Paris.

- Jacques Juillard : 2005. Le malheur francais. Editions Flammarion. Paris.

- Alex Kahn : 2004. Raisonnable et humain. Editions du Nil. Paris.

- Gilles Kepel : 2004. Fitna. Guerre au Coeur de l'Islam. Editions Gallinmard. Paris.

- Mark Kingwell : 2006. A la poursuite du bonheur، de Platon au Prozac. Editions Bayard. Paris.

- Yves Lacoste : 2006. Geopolitique. La longue histoire d'aujourd'hui. Editions Larousse. Paris.

- Adil Lahbabi : 2006. Image de l'Islam a la television francaise. Editions Tariq. Casablanca.

- Francois Laplance : 2006. La crise de l'origine. La science catholique des Evangiles et l'histoire au 21eme siecle. Editions albino Michel. Paris.

- Serge Latouche : 2005. L'Occidentalisation du monde… Editions La Decouverte. Paris.

- Bernard-Henri Levy : 2004. Récidives. Editions Grasset. Paris.

- Bernard Lewis : 2005. Islam. Editions Gallimard. Paris.

- Gilles Lipovetsky : 2006. Le bonheur paradoxal. Essai sur la societe d'hyperconsommation. Editions Gallimard. Paris.

- Jean-Pierre Luizard; 2006. (Sous la direction de). Le choc colonial et l'Islam. Les politiques religieuses des puissances colonials en terre d'Islam. Editions La Decouverte. Paris.

- Jean-Luc Marret : 2005. (Sous la direction de). Les fabriques du Jihad. Editions PUF. Paris.

- Jacques Marseille : 2006. Du Bon usage de la Guerre Civile en France. Editions Perrin. Paris.

- Armand Matteland : 2005. Diversite culturelle et mondialisation. Editions La Decouverte. Paris.

- Philippe Mauray : 2005. Moderne contre moderne. Editions Les Belles Lettres. Paris.

- Abdelwahab Meddeb : 2004. Face a l'Islam. Editions Textuel. Paris.

- Alain Minc. 2004. Ce monde qui vient. Editions Grasset. Paris.

- Alain Minc : 2005. Le crepuscule des petits-dieux. Editions Grasset. Paris.

- Claude Moniquet : 2005. Le Jihad en Europe. Editions Ramsay. Paris.

- Ruwen Ogien: 2004. La panique morale. Editions Grasset. Paris.

- Ruwn Ogien : 2006. La Morale a-t-elle un avenir? Editions Bayard. Paris.

- Ruwen Ogien : 2006. L'Ethique minimale. Editions Bayard. Paris.

- Michel Onfray : 2006. Contre-Histoire de la philosophie. Vol. 1 : Les sagesses antiques. Vol. 2 : Le christianisme hedoniste. Editions Grasset. Paris.

- Henri Pena-Ruiz : 2005. Histoire de la laicite. Genese d'un un ideal. Editions Gallimard. Paris.

- Alfred-Louis de Premarre : 2005. Aux origins du Coran. Editions Ternedre. Paris.

- Jacques Ranciere : 2006. La haine de la democratie. Editions La Fabrique. Paris.

- Jeremy Rifkin : 2005. The European Dram. Tarcher Editions.

- Christian Roudaut (dirige par): 2006. Ces Croyants qui nous gouvernent. Editions Payaot. Paris.

- Rabah Saddek : 2006. L'Islam dans l'imaginaire occidental. Librairie Orient (Beyrouth) et Dar Al Buraq (Paris).

- Youssef Seddik : 2004. Nous n'avons jamais lu le Coran. Editions L'Aube. Paris.

- Herve Sery : 2004. Naissance de l'intellectuel catholique. Editions La Decouverte. Paris.

- Mohamed Sifaoui : 2004. Lettre aux Islamistes de France et de Navarre. Editions Le Cherche-Midi.

- Philippe Simonnot : 2005. Les papes، l'Eglise et l'argent. Histoire economique des origines du christianisme a nos jours. Editions Gallimard. Paris.

- Guy Spitaels : 2005. La Triple Insurrection islamiste. Editions Fayard. Paris.

- Yassir Suleiman : 2004. A War of Words. Language and Conflict in the Middle East. Cambridge University Press.

- Pierre-Andre Taguieff : 2004. Precheurs de haine. Editions Mille et Une Nuits. Paris.

- Pierre Tevanian : 2005. Le voile mediatique. Editions Raison d'Agir.

- Isabelle Thomas-Fogiel : 2006. Reference et autoreference. Eudes sur le theme de la mort dans la pensee occidentale contemporaine. Editions Vrin. Paris.

- Tzvetan Todorov : 2006. L'Espirit des Lumieres. Editions Robert Laffont. Paris.

- Tzvetan Todorov : 2006. Les aventuriers de l'absolu. Editions Robert Laffont. Paris.

- Alain Touraine; 2005. Un nouveau Paradigme. Pour comprendere le monde aujourd'hui. Editions Fayard. Paris.

- Jean-Christophe Victor et ali. : 2006. Les dessous des cartes. Atlas geopolitique. Editions Arte/ Tallandier. Paris.

- Philippe De Villiers : 2006. Les Mosquees de Roissy. Nouvelles revelations sur l'Islamisme en France. Editions Albin Michel. Paris.

- Jean-Paul Willaine : 2005. Europe et religion. Editions Fayard. Paris.

- Dominique Wolton : 2004. L'Autre mondialisation. Editions Flammarion. Paris.

- Joseph Yacoub : 2005. Au Nom de Dieu. Editions Jean-Claude Lattes. Paris.

نهـر متعـدد.. مـتجـدد

هـذا الكتـاب

وحين نعود إلى مسألة الإسلام وصلته بوسائل الإعلام في الغرب، فإننا نقترح اعتماد استراتيجية كبرى تضمن الحضور الإيجابي في الساحة الإعلامية العالمية. وتقوم هذه الخطة على التوجهات العامة التالية (منها):

- المتابعة اليومية الحثيثة لكل ما يصدر عن الإسلام في وسائل الإعلام الغربية...

- إنشاء «بنك للمعلومات» حول القضايا التي تثار باسم الإسلام في وسائل الإعلام الغربية...

- تكوين مركز إعلامي يكون هدفه الأساسي ربط الاتصال المباشر بالمحطات التلفزيونية الغربية، المحلية، والفضائية، وتلك التي تبث عبر الإنترنت، والتدخل لدى المسئولين عنها في كل ما يذاع حول الإسلام في الغرب.

- تنظيم لقاءات دورية مع بعض المالكين لوسائل الإعلام الغربية الراغبين في تقديم صورة موضوعية عن الإسلام في الغرب (وما أكثرهم)، وتشجيع التواصل معهم من خلال تبادل البرامج والخبرات والتجارب.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية